آرنست همنغواي

سيول الربيع

رواية رومانتيكية على شرف رحيل عرق عظيم

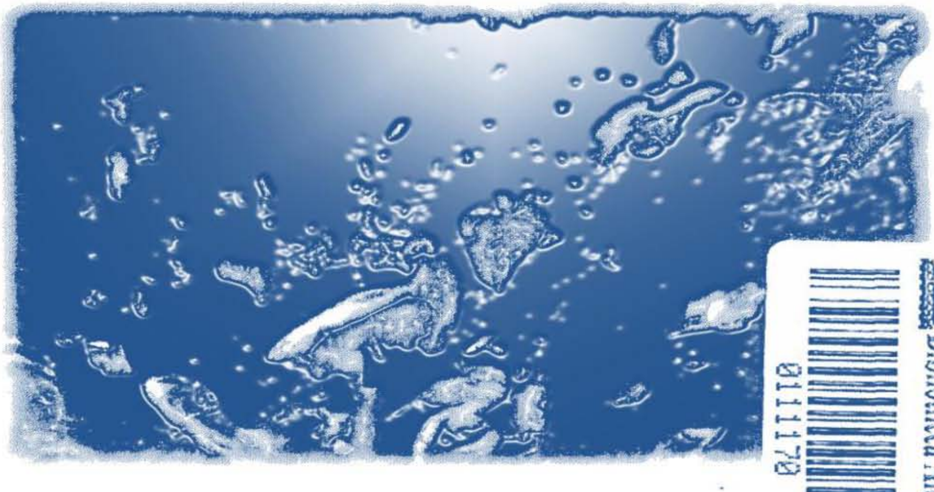

Bibliotheca Alexandrina
0111170

تقديم : ديفيد غارنيت
ترجمة : محمود قدري

منتدى مكتبة الإسكندرية

سيول الربيع

• سيول الربيع

رواية رومانتيكية على شرف رحيل عرق عظيم

• تأليف: آرنست همنغواي

• ترجمة: محمود قدري

• الطبعة الثانية 1999

• جميع الحقوق محفوظة للناشر

• الناشر:

دار الحوار للنشر والتوزيع

ص.ب 1018 ـ هاتف 422339 ـ اللاذقية ـ سورية

آرنست همنغواي

سيول الربيع

رواية رومانتيكية
على شرف رحيل عرق عظيم

تقديم: ديفيد غارنيت
ترجمة: محمود قدري

دار الحوار

ملاحظات

1 ـ جميع الهوامش هي من المترجم. وقد تم الإعتماد في معظمها على:

1 - «Webster's New Collegiate Dictionary»

2 ـ قاموس المورد: انجليزي ـ عربي، منير البعلبكي.

وأما التعريف بالأسماء والمواقع الواردة في الرواية فالاعتماد فيها كان على المرجع رقم (1) بشكل أساسي.

2 ـ لم يدخر المترجم جهداً في محاولة الحفاظ على أسلوب الكاتب. ولذلك تقيد في كثير من الحالات بكل ما يبرز هذا الأسلوب: عبارات الكاتب القصيرة وإصراره على استعمال صيغة الفعل الماضي وتكراره المتعمد للفعل «كان»، والبطء المقصود في وصف بعض المشاهد، وعلى سبيل المثال:

«كان هناك مشرب طويل. كانت هناك ساعة طاولة. كان هناك باب يؤدي إلى المطبخ. كانت هناك طاولتان. كان هناك بضع كعكات مقلية في الدهن. كان هناك لافتات.. الخ».

«سكريبس يلوح مودعاً... الخ. سكريبس لا ينظر إلى النافذة.

سكريس يصعد الدرج. سكريس يقترب. سكريس يقترب. سكريس هنا».

3 ـ أعطى المترجم الأولوية لإبراز المعنى المقصود والدلالة أو الرمز بالدقة التي يقصدها الكاتب مما أدّى، في بعض الحالات، إلى استعمال عبارات ـ في الترجمة ـ لا تتمتع بصياغة لغوية سلسة.

○ ○ ○

ولد «آرنست ميلر همنجواي» عام 1899 في «أوك بارك»، واحدة من ضواحي «شيكاغو» المحترمة، حيث كان والده، وهو رياضي ممتاز، يعمل طبيباً. وآرنست كان الثاني بين أطفال ستة. وقد اعتادت عائلته أن تقضي أيام راحتها في سكن للصيد على شاطيء بحيرة في «ميتشيجان» قريباً من القرى الهندية. ومع أنه كان نشيطاً وناجحاً في كل النشاطات المدرسية إلا أنه هرب مرتين من بيتهم قبل التحاقه بجريدة «كانساس سيتي» (ستار) كمراسل مبتديء عام 1917. وفي العام التالي تطوع كسائق سيارة إسعاف في الجبهة الايطالية وجرح جراحاً خطيرة. وبعد عودته إلى أمريكا بدأ كتابة مقالات (فيتشر) للمجلة الاسبوعية «تورنتوستارويكلي» عام 1919. وتزوج عام 1921. وفي نفس العام انتقل إلى أوروبا كمراسل جوّال وغطّى عدة مؤتمرات هامة. وكانت له، في فرنسا، صلات مع «غرترود ستاين»[1] ـ وقد تخاصما فيما بعد ـ و«ايزرا باوند»[2] و«جيمس جويس»[3]. وغطى بتقاريره الحرب اليونانية ـ التركية عام 1922.

وفي عام 1923 نُشرت له ثلاث قصص وعشر قصائد بصورة

محدودة في باريس. وقد انخرط بعد ذلك تدريجياً في حياة مصارعة الثيران وصيد الحيوانات الضخمة، والأسماك في عمق البحر. زار إسبانيا خلال الحرب الاهلية، وعاش معظم سني حياته الأخيرة في كوبا وتوفي عام 1961.

وأما أكثر كتبه شهرة فهي: «وداعاً للسلاح» (1929)، «موتٌ بعد الظهيرة» (1932)، «لمن تقرع الاجراس» (1940)، و«الشيخ والبحر» (1952)، وقد مُنِح جائزة نوبل للآداب عام 1954، وله ثلاثة أبناء.

لقد استطاع «همنغواي»، في وقت مبكر، أن يثبّت نفسه كسيّد أسلوب جديد في الكتابة الامريكية، صعب وفريد، وأصبح أسطورة خلال حياته، غير أنه، كما كتب «جون واين» في (الأوبزرفر) بعد موته «رغم وجود عدد كبير من مقلّديه إلا أن مدرسة همنغواية فعلية لم تظهر أبداً، لأن المقياس الذي أرساه كان صعباً».

○ ○ ○

الهوامش:

(1) غرترود ستاين: كاتبة أمريكية (1874 ـ 1946).

(2) إيزرا باوند: شاعر أمريكي (1885 ـ 1972).

(3) جيمس جويس: كاتب إيرلندي (1882 ـ 1941).

إهـــــداء

الى هـ. ل. مِنْكِنْ

وس. ستانود مِنْكنْ

بإعجـــاب

آرنست همنغواي

تقـــــديم

ديفيد غارنيت

حين قرأت «سيول الربيع» قبل ثلاثين عاماً وكتبت تقديماً لها، اعتقدت وقتها أنها هزليّة بشكل صارخ. أما الآن فلا أعتقد أنها هزلية إلى هذا الحد. والسبب في ذلك هو أن المقاربة الأدبية والأسلوب اللذين كان «همنغواي» يحاكيهما بسخرية، قد فرضا نفسيهما علينا آنذاك، مما جعل تسخيفهما يبعث فينا السرور. أما الآن فالنكتة تحتاج إلى تفسير لأنها فقدت غرضها الآني. والرواية، من ناحية أخرى، أصبحت أكثر أهمية لأن «همنغواي» قد تكشّف عن كاتب أكثر عظمة مما كان أحد يتوقع من كاتب «سيول الربيع»، ولأنها ـ الرواية ـ تفيدنا الكثير عن تطوره.

هذه الرواية هي كتابة الثاني. كتبها «همنغواي» وهو يعيش في باريس خالي الوفاض وغارقاً بسعادة في حبّ زوجته الأولى، لكنه يرى الكثير من المجتمع الأدبي. وآثار سنوات التشكّل هذه واضحة لنا الآن في «وليمة غير محددة التاريخ»[1] وهي سيرة ذاتية قصيرة

جداً نشرت بعد موت الكاتب. ويستطيع المرء من هذا الكتاب أن يرى غضب الكاتب من علاقاته وصداقاته مع «جيرترود ستاين» و«فوردمادوكس فورد» و«سكوت فيتزجيرالد»[2]. وعن هذه الفترة كتب «همنغواي» الصفحات الأولى من «موت بعد الظهيرة»:

«كنت آنذاك أحاول أن أكتب، وقد وجدت أن الصعوبة الكبرى، إضافة إلى معرفتك الحقيقية لما تحس به أكثر مما يُفترض أن تحس به وتعلّمت أن تحس به، هي في أن تكتب ما حدث عملياً وبالفعل، وتدرك الأشياء الواقعية التي ولدت الإحساس الذي خَبرتَه.

كنت أحاول أن أتعلم الكتابة بدءاً بأبسط الأشياء، وأحد أبسط الأشياء جميعاً وأكثرها أساسية هو: الموت العنيف..».

من السهل أنْ ترى، في حالة رجل بهذه الجدّية والريادة، أنّ أساتذة الأدب في باريس كانوا يثيرون الغضب حقاً. كان «همنغواي» يستميت في الكتابة. وكان تواقاً للتعلّم. لكنه سرعان ما تحقق من أن النصائح الأدبية والقيل والقال الأدبي لم يشكلا عوناً. وأن المحكّ الوحيد كان في صدق كل كلمة يكتبها. وأكثر من ذلك، كان «همنغواي» فقيراً. وكتب ببطء شديد وقد أخذ المنهمكون في القيل والقال كثيراً من وقته. ولذلك، فرغم أنها هزلية، فقد كُتبت هذه المحاكاة الساخرة بكثير من الغضب. لقد انقلب «همنغواي» ضد معلميه.

كتاب «همنغواي» الأول، وهو مجموعة من القصص «في أيامنا»، نُشر عام 1925. وعندما كتب هذه القصص كان يكنّ إعجاباً كبيراً لـِ «شيروود أندرسون»[3] وواقعاً تحت تأثيره إلى حد كبير. وأندرسون الذي كان في قمة شهرته وقتئذ قد أسهم في التعريف بالكتاب على غلافه. لكن كتاب أندرسون الثاني «ضحك أسود» كان أكثر من أن يبتلعه «همنغواي». وقد رد بعنف على منهج «أندرسون» الأدبي وبعنف أكبر على أفكاره. والعبارات التالية المقتطفة من الفصل الأول من «ضحك أسود»، والتي تصف عاملين ينظران عبر نافذة إلى ساحة مصنع، يمكن أن تشير إلى السبب:

«قريباً جداً ستُفتح النوافذ. والآن، سيحل الربيع قريباً... كان (سبونج) يمضغ التبغ، ولديه زوجة تسكر معه أحياناً أيام دفع الأجور... وحين تحدّث (سبونج) عن الطفل الآخر المسمّى للدعابة (باغز مارتن)[4] أصابه بعض القلق. كانت متهتكة ـ مقلقة منذ البداية. لا تستطيع أن تفعل معها شيئاً. لا تستطيع أن تبقيها بعيدة عن الأولاد. حاول (سبونج) ذلك وحاولت زوجته ولكن ماذل أفاد ذلك؟ كانت زوجة (سبونج) العجوز طيبة. وحين كانت تخرج مع (سبونج) في تلك الطريق لصيد سمك (السلّور) وقد شرب كل منهما خمس جرعات أوست من (القمر) تصبح مثل طفل... وحين كانت العجوز تبتهج وتصبح مثل طفل كان (سبونج) يشعر كذلك أيضاً»[5].

لقد استسلم «همنغواي» فيما بعد لإغراء فعل الشيء ذاته. لكن التكلف في «ضحك أسود» أثار مقته. فكتب محاكاته الساخرة في أيام قليلة. ونُشرت في كتابه الثاني عام 1925 بعد فترة قصيرة من نشر كتابه الأول.

إن المحاكاة الساخرة تتضح أكثر ما يكون في البداية. فلن يستغرق القارىء وقتاً طويلاً ليتعرف على (سبونج مارتن) وزوجته العايشة العجوز وعلى الفتاة اللعوب «باغز». وعلى كل حال فليست القصة هي ما يحاكي «همنغواي» بسخرية، ولا حتى المنهج الأدبي، وإنما الأفكار خلفها وخطأ مقاربة الكاتب لها.

«ضحك أسود» هي قصة مراسل جريدة يترك زوجته (ذات الثقافة الرفيعة)[6] ويعمل دهّان عجلات في مصنع عجلات، ويجتذب اهتمام زوجة رئيسه، وقد أوحى لها «بذات الرغبات الرقيقة» التي شعرت بها مرة تجاه رجل في باريس، فاستخدمته كبستانيّ.

إن فكرة أنّ «الربيع كان يحلّ في «انديانا» الجنوبية» تتخلّل رواية «ضحك أسود»، وتتمثّل وتسير جنباً إلى جنب مع اللقاء الذي يحدث بطيئاً بين «بروس» العامل وزوجة رئيسه التي تشبع في الأخير رغباتها الرقيقة. ولسوء الحظ فإن سرعة الأحداث التي تبدو حثيثة للبستاني وهو يراقب «الهليون» في مسكبه، تبدو بطيئة بصورة معذّبة حين نراقب البستاني نفسه. ويملّ القارىء من هذا

الحب البليد الذي إذا لم يصبح «أوسع من الامبراطوريات» فسيبدو أنه ينمو ببطء[7].

وخلال ذلك كانت النساء الزنجيات تحت درج المنزل يراقبن وينتظرن. وغالباً ما يتبادلن النظرات ويقرقرن بالضحك. «الهواء فوق رأس التلة كان مليئاً بالضحك، ضحك أسود». إن تباطؤ السيدة والبستاني كان يبدو لهن مضحكاً، تماماً كما سيبدو لمشاهدين أرفع ثقافة. لكن الزنوج، الذين استبدلهم «همنغواي» بالهنود، هم أكثر من مجرد زنوج، وضحكهم هو أكثر من مجرد غضب هستيري من سيدتهم. إنهم أبناء الطبيعة وضحكهم هو صوت الطبيعة. إنها خصوصية أندرسون (ومدرسة كاملة من المفكرين السخفاء) التي تعتبر أن الزنوج أقرب إلى الطبيعة من البيض، وأن اللون الأسود للبشرة أكثر طبيعية من اللون الأبيض.

لقد حلّل «وندهام لويس»[8] في مقالة نقدية لامعة الأفكار التي تشكل أساس رواية «ضحك أسود» وقارنها بأفكار «لورنس»[9] في رواية «صباح في المكسيك». وما من شيء يمكن أن يكون أفضل من فضْح «وندهام لويس» لغباء هذه الأفكار. ويحسن بالقارىء المجتهد أن يعود إلى «الأبيض»[10]. والخطأ الوحيد عند لويس هو أنه كان إخطاريّاً رأى خطراً قاتلاً يكمن في كل زاوية. لكنني شخصياً لا أرى في أفكار «أندرسون» أو «منكن» أي شيء أصيل. فوجهة النظر التي ترى تفوق ابن الطبيعة سواء كان زنجياً أو هندياً أحمر أو

فلاحاً روسياً تعود إلى ما قبل تولستوي، وردزوورث، روسو، وبير ناردين دي سينت بيير. فالفكرة ذاتها توجد في «دافينس وكلوي»[11] وسفر التكوين. وهي في الحقيقة ليست أكثر من اعتقادٍ بأن المرء يستطيع أن يجد ركناً أخيراً من العصر الذهبي كامناً في جزيرة ما أو في مجتمع بدائي ما. وأحياناً يستطيع المرء أن يجد ذلك بالفعل.

«الرسامون الامريكيون السخفاء! إنهم يطاردون ظلاً غوغانّياً[12] إلى البحار الجنوبية!» كتب أندرسون الذي وجد عصره الذهبي بين الزنوج. ومحاولة العثور على عصر ذهبي، بغض النظر عن مكان وجوده، تبدو لي كشكل صحّيٍّ من الرياضة لا تؤدي إلى تفسّخ عرقيٍّ أكثر مما يؤدّيه شغف «همنغواي» بالقنص وصيد السمك. وكما أن حظّ الحاضر السعيد هو في أن يكون قادراً دائماً على استثمار الماضي بعد أن يُلبسه ـ الحاضر ـ السحر الرومانتيكي الذي يراه مناسباً، كذلك فإن ميزة سكان المدن المتحضرين هي في إضفائهم الصورة العاطفية على الناس «البدائيين». ولاشك أنهم قد فعلوا ذلك في بابل[13]. وكلا المسلكين يبدوان صحّيين وعاديين.

وقد بدا «أندرسون» كأنه قد تبنّى ذلك أحياناً. لكن أفكار «د. هـ. لورنس» كانت مختلفة، كانت أكثر أصالة وأكثر ذاتية. فالهندي المكسيكي كان يروقه لأسباب تختلف بوضوح عن تلك التي قادت «وردزوورث» إلى إضفاء صفات مثالية على ساكن الكوخ الانجليزي البسيط. لم يكن العصر الذهبي الفاضل هو ما

أراده «لورنس». فما اعتقد أنه وجده في الهندي وثابر على امتداحه إنما كان غياب المُثُل وغياب الوعي الجنسي العقلي. وأنا واحد من القلائل الذين يعتقدون أن رواياته الطويلة ربما كانت أفضل لو استطاع ممارسة ما كان يعظ به، وهو ما تقيد به بالفعل في قصصه القصيرة.

إنني أذكر «لورنس» لمجرد أن العديد من النقاد الاميريكيين قد رأوا في «سيول الربيع» سخرية من «لورانس» كما من «أندرسون». وقد يكون ذلك صحيحاً لكنني لم أقدر على رؤية ذلك. وبالطبع فأندرسون ليس هو الهدف الوحيد للهجوم. هذا الصديق العجوز الثرثار «فورد مادوكس فورد» كان أكثر مما يحتمل «همنغواي». وحكايات «فورد» الموجودة هنا تضارعها قصص أخرى في «وليمة غير محددة التاريخ». وهي ستبهج كل من عرفه. وبالتأكيد فإن مختارات من فكاهات «فورد» أو عنه يجب أن تُجمع في عهد أناس يتذكرونه وأحبّوه أو عانوا منه.

إن الأهمية الاساسية لرواية «سيول الربيع» تبدو لي الآن ليس لأنها هزلية، ولا لأنها محاكاة ساخرة لشيروود أندرسون وأفكاره التي عبر عنها بطريقة ثقيلة، وإنما لأنها جاءت رفضاً من «همنجوي» لأساتذته وناصحيه الأدبيين. وهي بذلك تلقي ضوءاً على أعماله التالية.

○ ○ ○

الهوامش:

(1) ترجمة غير واثقة لـ A Moveable Jeast لأننا لم نقرأ الكتاب.

(2) سيرد تعريف بهذه الأسماء في متن الرواية.

(3) شيروود اندرسون: كاتب أمريكي (1876 - 1941).

(4) كلمة باغز تعني «البق» أو الشخص الأحمق.

(5) الترجمة هنا حرفية لأن الفقرة المقتطفة منتزعة من سياقها.

(6) التعبير في اللغة الانجليزية غالباً ما يستعمل للتهكم.

(7) الإشارة إلى سطرين من الشعر للشاعر (أندرو مارفيل Andrew Marvell) هما:

حبّي النباتي سوف ينمو
بأوسع من نمو الامبراطوريات وأكثر بطءاً.

(8) وندهام لويس: كاتب ورسام انجليزي (1884 - 1957).

(9) لورنس: د. هـ. لورنس سيرد تعريف به في متن الرواية.

(10) الأبيض هذه، على الأغلب، عنوان مقالة وندهام لويس.

(11) دافينس وكلوي: دافينس: ابن هيرمس معروف بأب الشعر الرعوي اليوناني. كلوي: عاشقة دافينس في الحكاية الرومانسية اليونانية.

(12) غوغانياً: نسبة إلى الرسام الفرنسي «غوغان».

(13) بابل: مدينة بابل، وهنا المدينة الكبيرة المنغمسة في الملذات والآثام.

الفصل الأول

ضحكٌ أحمر وأسود

«المصدر الوحيد للسخف الحقيقي ـ كما يبدو لي ـ هو التكلّف»

هنري فليدنغ[1]

- 1 -

وقف «يوغي جونسون» ينظر عبر نافذةِ مصنع كبير للمضخات في «ميتشيجان». سيحل الربيع قريباً. وتساءل «يوغي جونسون»:

ـ ترى هل سيكون ما قاله ذلك الزميل الكاتب هتشينسون: «إذا حلّ الشتاء فهل سيكون الربيع بعيداً؟» صحيحاً هذه السنة أيضاً؟

إلى جانب «يوغي» خلف النافذة المجاورة تماماً وقف «سكريِيس أونيِل»، رجل طويل نحيل ذو وجه طويل نحيل. وقف كلاهما ونظرا إلى ساحة مصنع المضخات الخالية. لقد غطّى الثلج المضخات المقفّصة[2] التي ستُشحن في وقت قريب. فما أن يحلّ الربيع ويذوب الثلج حتى يُخرج عمال المصنع المضخات من أكوامها، حيث كانت تتثلج في أقفاصها، وينقلونها إلى محطة

«جي آر آند أي»[3] لتحملها عربات حديدية مسطّحة وتشحنها بعيداً. نظر «يوغي جونسون» عبر النافذة إلى المضخات المغطّاة بالثلج في أقفاصها. ورسمت أنفاسه على صفحة زجاج النافذة البارد رسومَ حكايات جنيةٍ صغيرةً، وسرح «يوغي جونسون» بفكره إلى باريس: ربما رسوم حكايات الجنية هي التي ذكّرته بمدينة المرح، حيث أمضى مرّة أسبوعين. كانا أسبوعين من أسعد أسابيع حياته. ذلك كله، الآن، خلفه. ذلك وكل شيء آخر.

«سكريِس أونيل» متزوج من امرأتين. وعندما نظر عبر النافذة وهو واقف، طويلاً نحيلاً ومرناً وبقسوته الغامضة، فكر بكلتيهما. واحدة كانت تعيش في «مانسيلونا» والأخرى في «بيتوسكي». وهو لم يقابل زوجته في «مانسيلونا» منذ الربيع الماضي.

نظر إلى ساحة المضخات المغطاة بالثلج وفكّر فيما يعنيه الربيع. كثيراً ما سَكِر «سكريبس» مع زوجته في «مانسيلونا». وكان يشعر بالسعادة، هو وزوجته، حين يفعل ذلك. يتوجهان معاً إلى محطة سكة الحديد، يسيران معاً إلى محطة سكة الحديد، يسيران معاً على طول الخط الحديدي. يجلسان، يشربان ويراقبان القطارات المارّة، يجلسان تحت شجرة صنوبر على تلة صغيرة تطل على الخط الحديدي ويشربان. كانا يشربان طوال الليل أحياناً. وفي أحيان أخرى أسبوعا متواصلاً. وكان ذلك مفيداً لهما، إذ يجعل من «سكريبس» رجلاً قويّاً.

كان لشكريْس ابنة يسميها مداعباً «لاوزي أونيل»[4]، واسمها الحقيقي «لوسي أونيل». وفي ليلة بعد أن شرب «شكريْس» وزوجته العجوز ثلاثة أيام أو أربعة على الخط الحديدي، أضاع زوجته. لم يعرف أين راحت. وحين عاد إلى وعيه كان كل شيء مظلماً، سار على طول الخط الحديدي إلى المدينة. قضبان الربط العرضية كانت تحت قدميه صلبة ومؤلمة. حاول السير على القضبان الطولية فلم يستطع. فما شربه كان يكفي للحيلولة دون ذلك. وعاد إلى السير على القضبان العرضية. الطريق إلى المدينة كانت طويلة. لكنه وصل أخيراً إلى حيث استطاع رؤية أضواء فناء التحويل[5]. ابتعد عن الخطوط الحديدية ومرّ بمدرسة «مانسيلونا» الثانوية، بناء من طوب أصفر لا يظهر عليه أي أثر من زخرف «الركوكي» كما في البنايات التي رآها في باريس. كلا، هو لم يذهب أبداً إلى باريس. ليس هو. كان ذلك صديقه «يوغي جونسون».

نظر «يوغي جونسون» عبر النافذة. قريباً سيغلق مصنع المضخات أبوابه في المساء. فتح النافذة بحرص، مجرد شق. مجرد شق لكنه كان كافياً. كان الثلج في الساحة قد بدأ بالذوبان. وقد هبّ نسيم دافيء. «تشينوك»[6] كان عمال المصنع يسمّونه. دخلت ريح التشينوك عبر النافذة إلى المصنع. فألقى العمال أدواتهم. ومعظمهم كانوا هنوداً.

كان المراقب رجلاً قصيراً ذا حنك قوى. لقد ارتحل مرة حتى «دالوث». و«دالوث» هذه بعيدة عبر المياه الزرقاء للبحيرة الواقعة

على تلال «مانيسوتا». شيء مبهج حدث له هناك.

وضع المراقب إصبعه في فمه ليرطّبه ثم عرّضه للهواء، فأحس بالنسيم الدافيء فيه. هزّ رأسه بكآبة وابتسم للرجال، ربما بقليل من التجهّم، وقال: «إنها «تشينوك موسمية يا شباب».

وبصمت، في معظم الوقت، علّق العمال أدواتهم. ووُضعتْ المضخات نصف المنجزة في محافظها. واصطف العمال أمام الحمام: بعضهم يتكلم وآخرون صامتون وقليل منهم يتمتم.

ووصلت من البعد عبر النافذة صيحة حرب هنديّة.

- 2 -

وقف «سكريس أونيل» خارج مدرسة «مانسيلونا» الثانوية ينظر إلى نوافذها المضاءة. الظلام من حوله والثلج يتساقط. إنه يتساقط منذ ما استطاع «سكريبس» أن يتذكر. توقف عابرٌ وحدّق في «سكريبس». ولكن، ما يهمه من هذا الرجل؟ ومضى.

توقف «سكريبس» تحت الثلج وحدّق في نوافذ المدرسة الثانوية المضاءة. الأبناء داخل المدرسة يتعلمون. يعملون حتى وقت متأخر من الليل. الفتية يتنافسون مع الفتيات في بحثهم عن المعرفة، هذا التوق لتعلم الأشياء الذي كان يجتاح أمريكا. وابنته «لاوزي» الصغيرة، التي كلفته خمسة وسبعين دولاراً بالكمال والتمام ـ فواتير أطباء ـ كانت في الداخل هناك تتعلم، وكان سكريبس بذلك

فخوراً. لقد فات الأوان عليه ليتعلم، لكن «لاوزي»، هناك، تتعلم يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة. فيها (الخامة) الجيدة، هذه الفتاة.

سار «سكريبس» صعوداً إلى بيته. لم يكن بيتاً كبيراً. لكن الحجم لم يكن هو ما يهم زوجة «سكريبس» العجوز. «سكريبس» - غالباً ما كانت تقول وهما يشربان معاً - «لا أريد قصراً. كل ما أريده هو مكان يستبقي الريح خارجاً». وقد صدّق «سكريبس» ما قالت. والآن، وهو يسير في وقت متأخر هذا المساء تحت الثلج وقد رأى أضواء بيته، أحسّ بالسرور لأنه صدّق ما قالت. فعودته، في هذه الحالة، إلى هذا البيت أفضل من عودته إلى قصر. وهو، «سكريبس»، لم يكن من النوع الذي يريد قصراً.

فتح باب بيته ودخل. شيء ما ظلّ يدور في أرسه. حاول أن يخرجه فلم يقدر. ما الذي كتبه صديقه الشاعر «هاري باركر» الذي التقاه مرة في «ديترويت»؟ كان من عادة «هاري» أن يستظهره: «قد أطوف القصور والملذات، ورغم ذلك حين.. كذا كذا كذا.. لاشيء أفضل من الوطن». لم يتذكر الكلمات. لم يتذكرها كلها. لقد كتب لها لحناً بسيطاً وعلم «لوسي» غناءه. كان ذلك في مستهلّ زواجهما. كان يمكن أن يكون مؤلفاً موسيقياً، واحداً من هؤلاء الذين يكتبون ما تعزفه «فرقة شيكاغو السيمفونية» لو أُتيحت له فرصة الاستمرار. سيجعل «لوسي» تغني الليلة هذه الأغنية. ولن يشرب ثانية. لقد سرق الشرب منه أُذُنَه الموسيقية. فأحياناً، حين كان يسكر، كانت أصوات صفارات القطارات وهي

تجرّ نفسها صاعدة مُنحدر «بوين فولز»[7] أجمل من أي شيء كتبه «سترافينسكي»[8]. لقد فعل الشرب ذلك به. كان خطأ. كان سيرحل إلى باريس مثل «البرت سبولدنغ»[9] عازف الكمان.

فتح «سكريس» الباب ودخل. نادى:

- «لوسي هذا أنا، سكريس لن يشرب ثانية. ولا مزيداً من الليالي على خط. سكة الحديد.

ربما احتاجت «لوسي» معطف فرو جديد. وربما أرادت أيضاً قصراً مكان هذا البيت. أنت لم تعرف أبداً كيف كنت تعامل امرأة. وربما، أيضاً، أن هذا المكان لم يكن يستبقي الريح خارجاً. غريب.

أشعل عود ثقاب ونادى بصوت يشوبه خوف كئيب: «لوسي!». صديقه «والت سمونز» كان قد سمع صرخة كهذه تماماً من حصان فحلٍ داسته حافلة ركاب في محلة «فاندوم» بباريس. في باريس لم يكن ثمة خيول مخصيّة. كل الأحصنة كانت فحولاً. لم يستولدوا أفراساً.. منذ الحرب. لقد غيرت الحرب كل ذلك.

«لوسي!»، ونادى ثانية «لوسي!». ولم يسمع جواباً. كان البيت خالياً. وعبر الهواء المفعم بالثلج، وهو واقف في بيته المهجور وحيداً بنحالته الطويلة، بلغ أذنيّ «سكريس» صوت بعيد لصيحة حرب هندية.

- 3 -

رحل «سكريبس» عن «مانسيلوتا»، لقد سئم المكان، فماذا لدى مدينة كهذه لتعطيه؟ لا فائدة منها. تعمل طوال حياتك ثم يحدث شيء كهذا. نضبت مدخرات السنين، وراح كل شيء.

توجه «سكريبس» إلى شيكاغو ليحصل على وظيفة. «شيكاغو» هي المكان الملائم. انظرْ إلى موقعها تماماً على حافة بحيرة «ميتشيجان». «شيكاغو» ستحقق أشياء كبيرة. أي أبله يستطيع تقدير ذلك. أراد أن يشتري أرضاً في المنطقة التي تشكل الآن ألـ «لوب»[10]، مركز التجارة والصناعة. يشتري الأرض بسعر رخيص ويتمسّك بها. وليحاولوا أن ينتزعوها منه. فهو الآن قد تعلم بعض الأشياء.

سار وحيداً، عاري الرأس يتخلل الثلج شعره، إلى محطة «جي آر آند آي» للسكة الحديدية. كانت الليلة من أكثر الليالي التي عرفها برودة. التقط طائراً هامداً، تجمّد وسقط على خطوط السكة الحديدية، ووضعه في قميصه ليُدفّئه. تجمع الطائر ملتصقاً بجسده ونقر صدره بامتنان. «يا للطائر المسكين» قال سكريبس: «أنت أيضاً تحسّ بالبرد» وجالت الدموع في عينيه.

«اللعنة على هذه الريح» قال سكريبس وواجه ثانية هبوب الثلج. كانت الريح تهبّ منحدرة من «البحيرة العظمى». وأسلاك الهاتف فوق رأسه تغنّي مع الريح. وعبر الظلمة أبصر «سكريبس» عيناً

صفراء ضخمة تتجه نحوه. واقترب القطار العملاقُ يَعبُر العاصفة الثلجية فتنحّى «سكريس» جانباً ليسمح له بالمرور. ماذا يقول هذا الكاتب العتيق «شكسبير»: القوة تصنع الحق؟ فكر «سكريس» في هذا المقتطف، بينما القطار يمرّ به مسرعاً وسط الظلمة المثلجة. مرّت القاطرة أولاً. وأبصَرَ الوقّادَ ينحني ليقذف حمولة مجرفته من الفحم في باب الموقد المفتوح. والمهندس يلبس نظارات واقية وقد أضاء وجهه بالضوء المنبعث من باب الآلة المفتوح. هو المهندس، فهو الذي يضع يده على الخنّاقة[11]. وفكّر «سكريس» في فوضويي «شيكاغو» الذين رددوا وهم يُشنقون. «رغم أنكم تشنقوننا اليوم إلا أنكم لا تستطيعون..كذا وكذا.. أرواحنا». هناك نصب تذكاري حيث دُفنوا في مقبرة «والدهايم» قرب منتزه «فورِشت بارك أميوزمانت» في شيكاغو، وقد اعتاد والد «سكريس» أن يأخذه هناك أيام الآحاد. كان النصب أسود. وكان هناك ملاك أسود. وقتها كان «سكريس» ولداً صغيراً غالباً ما يسأل والده:

ـ «أبي، ما دمنا نحضر يوم الأُحد لنرى الفوضويين فلماذا لا نركب القوارب المتزحلقة[12]؟» وما أرْضَتْهُ إجابة أبيه أبداً، كان وقتها ولداً صغيراً بينطال قصير حتى الركبة، والده مؤلف موسيقي كبير وأمه إيطالية من الشمال. أناس غريبون هؤلاء الإيطاليون الشماليون.

وقف «سكريس» قرب الخط الحديدي وقِطَعُ القطار الطويلة تمرّ به وتطقطق في الثلج. العربات كلها من درجة البولمان[13].

ستائر النوافذ مسدلة. وظهر الضوء شقوقاً رفيعة من أعماق النوافذ المغلقة. لم يُرعد القطار كما يفعل لو كان يسير في الاتجاه المعاكس. فهو الآن يصعد منحدر «بوين فولز». وقد سار ببطء أكثر مما لو كان نازلاً. ورغم ذلك فهو سريع لا يقدر «سكريس» أن يقفز إليه كي يسافر مجّاناً. وتذكر كيف كان يتقن التعلق بعربات الخضار والسفر مجّاناً يوم كان ولداً صغيراً ببنطال الركبة القصير.

مرّ القطار ذو عربات البولمان السوداء الطويلة و«سكريس» واقف قرب الخط الحديدي. ترى من في هذه العربات؟ هل هم أمريكيون يكدّسون الأموال خلال نومهم؟ هل هنّ أمهات؟ هل هم آباء؟ هل من عشاق فيهم؟ أم هم أوروبيون ينتمون إلى حضارة بالية سئموا الحياة بسبب الحرب؟ تساءل «سكريس».

تجاوزته العربة الأخيرة وراح القطار يصعد الخط الحديدي. وراقب «سكريس» الضوء الأحمر خلف العربة الأخيرة، يختفي في العتمة التي تتخلّلها رقائق الثلج برفق. رفّ الطائر في قميصه. وابتدأ «سكريس» سيره على امتداد القضبان العرضية الرابطة. أراد أن يصل «شيكاغو» الليلة، إن أمكنه ذلك، ليبدأ العمل في الصباح. رفّ الطائر ثانية. هو الآن ليس ضعيفاً إلى ذلك الحد. وضع «سكريس» يده عليه يهدّيء ارتعاشه فهدأ. وغذّ «سكريس» سيره على الخط الحديدي.

ليس عليه، على كل حال، أن يسير بعيداً حتى «شيكاغو» هناك أماكن أخرى. وماذا يعني إذا سمّى هذا الناقد «هنري مِنْكنْ»[14] «شيكاغو» عاصمة الأدب في أمريكا؟ هنالك «جراند رابيدز». إذا بلغ «جراند رابيدز» يستطيع أن يبدأ في تجارة الأثاث.

هكذا جُنيت الثروات وأثاث «جراند رابيدز» مشهور في كل مكان يسير فيه زوجان فتيان في المساء، يتحدثان عن إقامة بيت. وتذكّر لافتة رآها في «شيكاغو» وهو صبي صغير. أشارت أمه إليها وهما يسيران معاً، بأقدام عاريه في مكان ربما هو اليوم الـ «لوب»، يتسوّلان معاً من باب لباب. وقد أعجبت الأم بسطوع الأضواء الكهربائية الوامضة على اللافتة.

«إنها مثل «سان ميناتو» في بلدتي «فلورنسا»، قالت لسكريس: انظرْ إليها يا بني. في يوم ستَعزِفُ «فرقة فيرينز السيمفونية موسيقاك هناك».

كثيراً ما راقب «سكريس» اللافتة وأمه نائمة، ملفوفة بحرام بالٍ في مكان ربما أصبح «فندق بلاكستون» هذه الأيام. لقد أثّرتَ فيه اللافتة كثيراً. كانت اللافتة تقول:

دع هارتمان يؤثث عُشّك

كانت تومض بألوان متعدّدة مختلفة. أولاً. ضوء أبيض، نقيّ باهر، هو أكثر ما أحبُّ «سكريس». ثم تسطع بضوء أخضر جميل. ثم بضوء أحمر. وفي ليلة بينما كان مستلقياً، متجمّعاً

وملتصقاً بجسد أمه الدافيء يراقب وميض اللافتة، صعد إليهما شرطي وقال: «عليكما أن تغادرا المكان فوراً».

نعم، أموال طائلة يمكن أن تُجنى من تجارة الأثاث إذا عرفت كيف تتصرف. وهو، سكريبس، قد عرف كل أسرار هذه المهنة، وقد حَسَم الأمر في رأسه. سيتوقف في «جراند رابيدز». ورفّ الطائر الصغير، في هذه اللحظة، بسعادة.

«ياله من قفص جميل مذهّب ذلك الذي سأضعه لك يا طائري الجميل» قال سكريبس مبتهجاً. ونقر الطائر جسده في ثقة. وغذّ «سكريبس» الخطى في العاصفة، وراح الثلج يتراكم على طول الخط الحديدي. وحملت الريح إلى أذني «سكريبس» صوت صيحة حرب هندية بعيدة.

أين «سكريبس» الآن؟ أربكه السير في الليل والعاصفة. لقد توجه إلى «شيكاغو» بعد تلك الليلة المخيفة التي اكتشف فيها أن بيته ما عاد بيته. لماذا رحلت «لوسي»؟ ماذا حلّ بلا وزي؟ هو، سكريبس، لا يعلم. ليس هذا ما كان يهمه. كل ذلك أصبح خلفه. ولم يتبقّ منه الآن شيئاً. كان واقفاً والثلج حتى ركبتيه أمام محطة سكة حديد كتب عليها بحروف كبيرة:

بيتوسكي

على رصيف المحطة كومة من الوعول شحنها الصيادون من «شبه جزيرة ميتشيجان العليا»، مكوّمة الواحد منها فوق الآخر، ميّتة

ومتصلبة يكاد يغطّيها الثلج. قرأ «سكريبس» اللافتة ثانيةً: هل يمكن أن تكون هذه «بيتوسكي»؟

داخل المحطة كان رجل ينقرُ بشيء ما على قفا نافذة مكوّاة[15]. نظر الرجل إلى «سكريبس». هل هو عامل البرق؟ شيء ما أكد لسكريبس أنه كذلك.

خطا خارجٍ الثلج المتراكم واقترب من النافذة. خلفها كان الرجل منشغلاً بمفتاح تلغرافه.

«هل أنت عامل البرق؟» سأله سكريبس.

«نعم يا سيدي» أجاب الرجل «أنا عامل البرق».

«ياللعجب!»

حدجه عامل البرق بنظرة متشككة. لكن، ماذا يعني هذا الرجل له؟

«هل صعبٌ أن تكون عامل برق؟» سأله سكريبس. أراد أن يسأله مباشرة إن كانت هذه هي مدينة «بيتوسكي». فهو لم يكن يعرف هذا الجزء الشمالي الشاسع من أمريكا، ولكنه يريد أن يكون مهذباً.

نظر إليه عامل البرق مستغرباً.

«قل لي» سأله «هل أنت جنيّ؟».

«لا» أجاب سكريبس «ولا أعرف ما تعنيه هذه الكلمة».

«حسناً» قال عامل البرق «ولماذا تتجول هنا وأنت تحمل طائراً؟».

«طائر؟» سأل سكريبس «أي طائر؟».

«ذلك الطائر الذي يبرز من قميصك».

ارتبك «سكريبس». أي نوع من الناس عامل البرق هذا؟ أي نوع من الرجال هؤلاء الذين يعملون في البرق؟ هل هم مثل المؤلفين الموسيقيين؟ هل هم من نوع رجال الإعلان الذين يدبجّون الإعلانات في مجلاتنا الوطنية الاسبوعية؟ أم هم مثل الاوروبيين اجتذبتهم الحرب وأتلفتهم أفضل سنيّهم هي التي مضت؟ هل يخبر عامل البرق بقصته كاملة؟ وهل تراه يفهم؟ «توجهت إلى بيتي» بدأ حديثه «ومررت بمدرسة «مانسيلونا» الثانوية...».

«عرفتُ فتاة في مانسيلونا» قال عامل البرق «ربما تعرفها، إيثيل اينرايت».

لا فائدة من الاسترسال. سيختصر القصة. سيقدم عناصرها الأساسية المجردة. كما أن برودة الجو قاسية. والوقوف على رصيف المحطة الذي تجتاحه الريح يجعلك ترتعش برداً. شيء ما قال له بأن لا فائدة من الاسترسال. نظر إلى الوعول الباردة المتصلّبة المكوّمة. ربما هم، أيضاً، كانوا عشاقاً. بعضهم ذكور وبعضهم إناث. للذكور قرون بها تستطيع تمييزهم. الأمر أكثر صعوبة في القطط. في فرنسا يخُصون القطط ولا يخصون الخيول. فرنسا بعيدة.

«هجرتني زوجتي» قال سكريبس فجأة.

«لا أستغرب ذلك مادمت تتجول وطائر ملون يبرز من قميصك» قال عامل البرق.

«أي مدينة هذه؟» سأل سكريبس. وتبدّدت اللحظة الوحيدة من التواصل التي تهيأت لهما. وهذه اللحظة، في الحقيقة، ماتهيأت لهما أبداً. لكنها كانت ممكنة. وأما الآن فلا فائدة. لا فائدة من محاولة الإمساك بما وليّ وراح. «بيتوسكي» أجاب عامل البرق.

«شكراً» قال سيكريبس واستدار وسار في المدينة الشمالية المهجورة الصامتة. في جيبه، لحسن الحظ، أربع مائة وخمسون دولاراً. كان قد باع «جورج هوريس لوريمر» قصة قبل أن يخرج مع زوجته العجوز في رحلة الشرب تلك، لماذا ذهب أصلاً؟ لأي هدف؟.

كان هنديان (ينزلان) الشارع ويتقدمان نحوه. نظرا إليه ولم يتغيّر وجهاهما. ودخلا صالون «مكارثي» للحلاقة.

- 4 -

وقف «سكريبس أونيل» متردداً أمام صالون الحلاقة. داخل الصالون كان رجال يحلقون ذقونهم، وآخرون، مثلهم، يقصّون شعرهم. وآخرون جلسوا في مواجهة الحائط على مقاعد عالية، يدخنون وينتظرون أدوارهم على كراسي الحلاقة، وينظرون

بإعجاب إلى اللوحات على الجدران أو إلى صورهم في المرآة الطويلة. هل يدخل، هو سكريبس، إلى هناك؟ لديه في جيبه، على كل حال، أربع مائة وخمسون دولاراً. يستطيع أن يذهب أين يشاء. أرسل نظرة ثانية مترددة. كان المنظر مغرياً، جَمْعُ الرجال، والغرفة الدافئة والأردية البيضاء للحلاقين وهم يعملون بمهارة مقصاتهم، أو يُجري الواحد منهم موساه قطرياً على طول بشرة وجه أحد الرجال الذين يحلقون ذقونهم.

يحسنون استعمال أدواتهم، هؤلاء الحلاقون. لكن الدخول إلى الصالون ليس هو ما أراده. لقد أراد أن يأكل. وهنالك، أيضاً، طائره، وعليه أن يعتني به.

أدار «سكريبس أونيل» ظهره لصالون الحلاقة وسار بصمت صاعداً شارع المدينة الشمالي المتجمدة، عن يمينه أشجار البتولا الباكية، أغصانها عارية مدلاّة إلى الطريق مُثقلة بالثلج. بلغت أذنيه أصوات أجراس عربة جليدية. ربما هو أوان عيد الميلاد. لابدّ أن الأطفال في الجنوب يطلقون المفرقعات النارية ويصيحون الواحد للآخر «هدية الميلاد! هدية الميلاد!». والده أتى من الجنوب. كان جندياً في الجيش الثوري. ومنذ زمنٍ، أيام الحرب الأهلية، أحرق «شيرمان» بيتهم أثناء مسيرته إلى البحر. «الحرب جحيم» قال شيرمان «كما ترين ياسيدة أونيل عليّ أن أفعل ذلك». وأشعل النار في البيت القديم بأعمدته البيضاء.

«لو كان الجنرال أونيل هنا أيها الجبان الخسيس!» قالت أمه بلغتها الانجليزية المكسرّة «فلن تستطيع أن تشعل النار في هذا البيت».

انعقد الدخان فوق البيت القديم، وشبّت النار وسوّدت أكاليلُ الدخان الأعمدة البيضاء. وتشبث سكريس برداء أمه الصوفي - الكتاني الخشن.

إمتطى الجنرال «شيرمان» حصانه وانحنى انحناءة شديدة. «ياسيدة أونيل» قال، وتؤكد والدة سكريس دائماً أن الدموع جالت في عينيه رغم أنه «يانكيّ» ملعون. للرجل قلب يا سيدي رغم أنه لا يتبع أوامره. «ياسيدة أونيل، لو كان الجنرال هنا لحسمنا الأمر رجلاً لرجل. وبما أن الحرب يا سيدتي هي ما هي عليه فواجبي أن أحرق بيتك».

وأومأ إلى واحد من جنوده فأسرع يسكب على النار دلواً من الكاز، فشبّ اللهب وارتفع عمود من الدخان في هواء المساء الساكن.

«على الأقل يا جنرال شيرمان» قالت والدة سكريس بنغمة انتصار في صوتها «هذا العمود من الدخان سينذر بقية بنات الاتحاد[16] المخلصات بقدومك».

انحنى شيرمان وقال: «هذه مخاطرة لابد منها يا سيدتي». ولكز حصانه وابتعد بشعره الأبيض عائماً في الهواء. ولم

يحدث بعد ذلك أن رآه «سكريس» أو والدته.

غريب أن يفكر الآن في تلك الحادثة. نظر إلى الأعلى فواجهته لافتة:

«مطعم براون للفاصولياء الأفضل بالتجربة»

سيدخل ويأكل، فهذا ما أراده. سيدخل ويأكل. هذه اللافتة!.. الأفضل بالتجربة.

آه، أصحاب مطاعم الفاصولياء الكبار هم أناس حكماء. يعرفون كيف يجتذبون الزبائن. لا إعلانات دعاية في «ساتردي ايفننغ بوست»[17]. الأفضل بالتجربة. هذا هو التعبير الصحيح[18]. ودخل.

وبعد أن تجاوز «سكريس» باب مطعم الفاصولياء نظر حواليه. كان هناك مشرب[19] طويل. كانت هناك ساعة طاولة. كان هناك باب يؤدي إلى المطبخ. كانت طاولتان. كانت هناك كومة من كعك مقليّ في الدهن تحت غطاء زجاجي. وكانت هناك لافتات ثُبتت على الحائط تعلن عما يؤكل. هل هذا المكان، بعد كل ذلك، هو مطعم براون، للفاصولياء؟

«أتساءل» وجّه سكريس سؤاله إلى نادلة مسنّة خرجت من باب المطبخ المتأرجح «هل تستطيعين إخباري إن كان هذا هو مطعم براون، للفاصولياء؟».

«نعم يا سيدي» أجابت النادلة «الأفضل بالتجربة».

«شكراً» قال سكريس وجلس إلى المشرب: «أريد قليلاً من الفاصولياء لي، وقليلاً لطائري».

فتح قميصه ووضع الطائر على المشرب. نفض الطائر ريشه وانتفض، ونقر مستطلعاً زجاجة صلصة البندورة. مدت النادلة يدها وربّتت عليه. «أليس هو[20] شخص رجوليّ صغير؟» قالت النادلة. «عفواً». سألت بقليل من الخجل: «ماذا طلبت ياسيدي؟» «فاصولياء» أجاب سكريس «لطائري ولي».

رفعت النادلة بوياً صغيراً يؤدي إلى المطبخ فلمح سكريس غرفة دافئة مليئة بالبخار وأوعية كبيرة وغلاّيات وكؤوساً لامعة كثيرة معلقة على الحائط.

«ختزير والصاخبات»[21] صاحت النادلة بصوت مِهَني في النافذة المفتوحة «واحد للطائر».

«على النار» ردّ صوت من المطبخ.

«كم عمر طائرك؟» سألت النادلة المسنة.

«لا أعرف» أجاب سكريس «لم أره قبل ليلة أمس. كنت أسير على خط سكة الحديد من (مانسيلونا). لقد هجرتني زوجتي».

«ياأللمسكين» قالت النادلة، ووضعت قليلاً من صلصة البندورة على إصبعها فنقر منها الطائر مُمتنّاً.

«هجرتني زوجتي» قال سكريبس «كنا قد خرجنا لنشرب على خط سكة الحديد. اعتدنا أن نخرج في الأمسيات نراقب القطارات المارّة. أنا أكتب قصصاً. نُشرت لي قصة في (البوست) واثنتين في (دايال)[22]. يحاول «مِنكن»[23] السيطرة عليّ. لكنني متنبهة جداً لذلك. ولا أرضى بشرطيّ[24] عَلَيّ. إنهم يسبّبون لي الدوار[25].

ماذا كان يقول؟ لقد تهوّر في كلامه. هذا لن ينفع أبداً. عليه أن يتماسك.

«وسكوفيلد ثاير، كان الأثير عندي. أنا خرّيج هارفارد. كل ما أريده منهم هو أن ألقى وطائري معاملة عادلة وليس مزيداً من السياسة العامية[26]. فأبعدوا الدكتور (كوليدج)»[27].

لقد سرح ذهنه. لكنه عرف السبب. وإنه الجوع الذي سبب له الدوار. وهذه الريح الشمالية كانت حادة وقاسية أكثر مما يحتمل.

«أقول» قال: «هل ستقدمين لي قليلاً من هذه الفاصولياء. لا أحب استعجال الأشياء، وأعرف متى عليّ أن لا أتدخل». فتح البويب الصغير وظهر طبقان واحدهما كبير والآخر صغير.

«ها هما»: قالت النادلة.

وراح سكريبس يلتهم الطعام من الطبق الكبير. كان فيه أيضاً قليل من لحم الخنزير. وأقبل الطائر يأكل القدح رافعاً رأسه بعد كل بلعة لتسقط حبة الفاصولياء في جوفه.

«يفعل ذلك شكراً لله على حبات الفاصولياء» قالت النادلة موضحةً.

«إنها حبات فاصولياء جيدة بالعفل» قال سكريبس موافقاً.

أخذت رأسه، بتأثير الفاصولياء، تصفو. ما هذا الهراء الذي تفوّه به عن ذلك الرجل «هنري منكن»؟ هل كان «منكن» يسعى وراءه بالفعل؟ ولم تكن الصورة التي يواجهها جميلة. لديه في جيبه أربع مائة وخمسون دولاراً. وحين تنفذ يستطيع أن يضع حدّاً لكل شيء. وإذا ضغطوا أكثر فسيتلقون منه مفاجأة كبيرة. فليس هو الرجل الذي يؤخذ حيّاً. ليُحاولوا.

غط الطائر، بعد الفاصولياء، في النوم. نام على رجل واحدة ورجله الأخرى مدسوسة في ريشه.

«حين يتعب من النوم على تلك الرجل يبدّلها ويرتاح» قالت النادلة «كان عندنا في البيت عقاب عجوز يشبه هذا».

«أين كان بيتكم» سأل سكريبس.

«في انجلترا، في ليك ديستريكت»[28] وابتسمت النادلة بقليل من الاكتئاب «وطن ويرذوورت[29]، كما تعلم».

يالهؤلاء الانجليز. لقد ارتحلوا فوق سطح الكرة الأرضية كله. لم يقنعوا بالعيش في جزيرتهم الصغيرة. شماليون[30] عجيبون يستحوذ عليهم حلمهم بالامبراطورية.

«لم أكن، دائماً، نادلة» قالت النادلة المسنة.

«واثق أنكِ لم تكوني كذلك».

«ولا نصف» تابعت النادلة حديثها «إنها قصة غريبة نوعاً ما. أيمكن أن تسبب لك الملل؟».

«أبداً» قال سكريس «ألا تمانعين إن استعملتُ القصة في وقت ما؟»

«كلا، إن وجدتها ممتعه» قالت النادلة مبتسمة: «لن تستعمل اسمي بالطبع».

«لا، إذا كنتِ لا تريدين»، قال سكريس: «هل لي أن أطلب صحناً آخر من الفاصولياء؟».

«الأفضل بالتجربة» قالت النادلة مبتسمة. كان وجهها رمادياً متغضّناً. تشبه، قليلاً، تلك الممثلة التي ماتت في «بيتسبيرغ». ماذا كان اسمها؟ «لينور أولريك»، في فيلم «بيتربان»[31]. هذا هو الاسم. يقولون إنها كانت دائماً تتجّول مقنّعة. تلكم امرأة كانت تثير الاهتمام. هل كان اسمها «لينور أو لريك»؟ ربما لا، لايهم.

«هل تريد حقاً مزيداً من الفاصولياء؟» سألت النادلة.

نعم» أجاب سكريس ببساطة.

«مرة أخرى مع المدويات» نادت النادلة عبر النافذة الصغيرة «لاتحسب حساب الطائر».

«على النار» جاء الجواب.

«أرجو أن تتابعي قصتك» قال سكريس بحنان.

«حدثت في سنة معرض باريس» بدأت النادلة حديثها «كنت فتاة صغيرة آنذاك، جون فيّ[32]. سافرت من انجلترا مع أمي. كنا سنحضر افتتاح المعرض. وفي طريقنا من غاردي نور[33]، إلى فندق بلاس فاندوم، توقفنا في محلّ حلاّق واشترينا بعض الأشياء الخفيفة. واشترت أمي، على ما أذكر، زجاجة أخرى من أملاح الشم[34]، كما تسمونها هنا في أمريكا».

ابتسمتْ.

«نعم، استمري. أملاح شم» قال سكريس.

«سجّلنا، كالعادة، في الفندق. وحصلنا على الغرفتين المتجاورتين اللتين كنا حجزناهما. أحست والدتي بقليل من التعب بسبب السفر، فتناولنا الطعام في الغُرف. كنت متشوقة كثيراً لمشاهدة المعرض في الغد. ولكنني كنت متعبة ـ كان إبحار العبور[35] سيئاً ـ ونمت نوماً عميقاً. استيقظت في الصباح وناديت أمي فلم أسمع جواباً. ذهبت إلى الغرفة لأوقظها وبدلاً منها وجدت في الفراش جنرالاً فرنسياً.

«مون ديو»[36]! قال سكريس.

«ارتعبتُ كثيراً» واصلتْ النادلة حديثها «قرعتُ الجرس طالبةً

الإدارة وجاء الحارس فطالبته بمعرفة مكان أمي. ولكن يا آنسة، قال حارس الفندق: لا نعرف شيئاً عن أمك. أتيتِ مع الجنرال كذا كذا، لا أستطيع أن أتذكر اسم الجنرال».

«سمّه الجنرال جوفر»[37] اقترح سكريس.

«كان اسماً شبيهاً جداً بذلك «قالت النادلة «خفتُ كثيراً وطلبت الشرطة: كما طلبت رؤية سجلّ النزلاء. ستجدون أنني مسجلة فيه مع أمي قلت.

جاء رجال الشرطة وأحضر حارس الفندق سجل النزلاء. انظري يا سيدة، قال لي وأنتِ مسجّلة مع الجنرال الذي أتيتِ معه إلى الفندق الليلة الماضية.

أصابني اليأس. ولكنني تذكرت أخيراً مكان محل الحلّاق. وأرسلت الشرطة في طلبه. وأحضره موظف في الشرطة.

توقفت في محلك مع أمي، قلت للحلاق واشترتْ أمي زجاجة أملاح عطرية، أتذكّر يا آنسة تماماً، قال الحلاق ولكنك لم تكوني مع أمك. كنت مع جنرال فرنسّي عجوز.

وقد اشترى، كما أتذكر، زوجاً من ملاقط الشوارب. دفاتري، على كل حال، ستُظهر المادة المشتراة.

أصابني اليأس. وخلال ذلك أحضر رجال الشرطة سائق سيارة الأجرة التي أقلتنا من المحطة إلى الفندق. أقسم السائق أنني لم أكن

أبداً مع أمي. قل لي، هل تسبب لك القصة الملل؟».

«استمرّي» قال سكريبس «لو تكونين، مثلي، بأمسّ الحاجة إلى الحبكات القصصية!».

«حسناً» قالت النادلة «هذا كل شيء. لم أرَ أمي ثانية. اتصلت بالسفارة لكنهم لم يقدروا على فعل شيء. توصّلوا أخيراً إلى أنني عبرت القنال مع أمي، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء أكثر من ذلك».

ظهرت الدموع في عينيّ النادلة المسّنة «لم أرَ أمي بعد ذلك. أبداً. ولا مرّة».

«وماذا عن الجنرال؟».

«أخيراً، أقرضني مئة فرانك ـ ليست مبلغاً كبيراً حتى في تلك الأيام ـ وأتيت إلى أمريكا لأصبح نادلة. هذا كل ما في القصة».

«هنالك ما هو أكثر من ذلك» قال سكريبس «أراهن بحياتي أن هنالك ما هو أكثر من ذلك».

«أحسّ، أحياناً، بذلك» قالت النادلة «أشعر بأنه لا بدّ من وجود ما هو أكثر من ذلك. في مكان ما وبصورة ما لابدّ من وجود تفسير لما حدث. لا أدري ما الذي جاء بالموضوع إلى ذاكرتي هذا الصباح».

«حسن أن تخرجيه من رأسك» قال سكريبس.

«نعم» قالت النادلة مبتسمة.التغضنات في وجهها لم تكن عميقة. «أشعر الآن أنني أفضل حالاً».

«أخبريني» سأل سكرييس النادلة «هل من عمل في هذه المدينة لي ولطائري؟».

«عمل شريف؟» سألت النادلة «فأنا لا أعرف إلا عن العمل الشريف».

«نعم، عمل شريف» أجاب سكرييس.

«يقولون انهم يستأجرون عمالاً في مصنع المضخات» قالت النادلة.

لم لا يعمل بيديه؟ «رودان»[38] فعل ذلك. وكان «سيزان»[39] جزّاراً. و «رينوار»[40] نجاراً. وفي صباه عمل «بيكاسو[41]» في مصنع سجاد. «جيلبرت ستيوارت»[42] الذي رسم صوَرَ «واشنطن»[43] الشهيرة، تلك التي يُعاد إنتاجها في كل أنحاء أمريكتنا هذه وتعلق في كل غرفة مدرسة ـ «جيلبرت ستيوارت» كان حدّاداً. وعندك «اميرسون»[44]. «اميرسون» كان يحمل وعاء الملاط. و«جيمس راسيل لووِيل»[45]، كما سمع، كان عامل برقٍ في شبابه. مثل ذلك الرجل في المحطة. ربما هو، حتى هذه اللحظة، مشغول بتأملاته أو إشاراته.

ولم لا يعمل «سكرييس أونيل» في مصنع مضخات؟

«ستعود؟» سألت النادلة.

«إن استطعت» قال سكريس.

«وتحضر طائرك»

«نعم» قال سكريبس «هذا المسكين الآن متعب قليلاً. كانت ليلة قاسية عليه».

«بالتأكيد كانت كذلك» وافقت النادلة.

خرج «سكريبس» ثانية إلى المدينة. أحسّ بصفاء ذهن واستعدادٍ لمواجهة الحياة. مصنع مضخاتٍ سيكون شيئاً ممتعاً. المضخات، هي الآن شيء مهم. تُجنى الثروات وتضيع على المضخات كل يوم في شارع «وول ستريت» بنيويورك. وقد سمع عن شخص ربح نصف مليون من وراء المضخات في أقل من نصف ساعة. كبار المضاربين في «وول ستريت» هؤلاء يعرفون تماماً ما هم مقدمون عليه.

وفي الشارع، خارج المطعم، رفع بصره إلى اللافتة وقرأ: الأفضل بالتجربة. وقال في نفسه: لديهم التعبير الصحيح. ومع ذلك، هل لديهم حقّاً طباخ زنجي؟ لقد اعتقد، مرة واحدة وللحظة واحدة عندما فتحت النافذة الصغيرة، أنه لمح شيئاً أسود. ولكن ربما كان الرجل مسوّداً بسناج الفرن.

ooo

الهوامش:

(1) هنري فليدنغ: روائي انجليزي (1707 - 1754).

(2) المقفّصة: الموضوعة في أقفاص (وغالباً ما تكون مشبكة).

(3) جي آر آند آي: الاختصار الانجليزي لاسم المحطة. (G.R. and I).

(4) لاوزي: المقمّلة أو القذرة.

(5) فناء التحويل: ساحة يتم فيها تحويل القطارات.

(6) تشينوك: ريح دافئة رطبة، والتسمية من أصل هندي.

(7) بوين فولز: اسم معناه «شلالات بوين»، رغم ان نهر «بوين» موجود في ايرلندة.

(8) سترافينسكي: إيغور فيدور فيتش، مؤلف موسيقي روسي (1882 - 1971).

(9) البرت سبولدنغ: مؤلف موسيقي وعازف كمان أمريكي (1888 - 1953).

(10) لوب: اسم المركز التجاري والصناعي وهي تعني العقدة أو العروة.

(11) الخناقة: أداة تخفيف السرعة في القطار.

(12) القوارب المتزحلقة: (شوت ذي شوتز) تسلية تركب فيها قوارب خاصة ذات أرضية مستوية تتزحلق على منحدر شديد أملس إلى حوض مائي كبير وتسير فيه.

(13) عربات البولمان: عربات مجهزة بأسرّة.

(14) هنري منكن: محرر وناقد أمريكي 1880 - 1956.

(15) مكوّاة: ذات كوّة.

(16) الاتحاد: كونفدراسي. اتحاد الولايات التي انفصلت عن الولايات المتحدة الامريكية عام 1860.

(17) اسم جريدة مسائية.

(18) الاشارة هنا إلى المعنى وإلى الايقاع، فالتعبير في الانجليزية هو «ذي بِشتْ

باي تِشْ» ذو إيقاع جميل أيضاً.

(19) مشرب: (كاونتر) وهي منضدة طويلة تستعمل للشرب ولتناول وجبة سريعة.

(20) استعمل الكاتب هنا ضمير العاقل للطائر.

(21) الصاخبات (وسيرد بعد قليل «المدوّيات») هي أسماء تطلقها النادلة على الفاصولياء.

(22) البوست ودايال: أسماء صحف.

(23) منكن: هنري. سبق التعريف به.

(24) استعمل كلمة ألمانية (بوليتساي).

(25) استعمل كلمة من أصل ألماني (كاتز نجامرز).

(26) استعمل كلمة ألمانية فيلت بوليتيك.

(27) في الأغلب هو الرئيس الثلاثون للولايات المتحدة من 1923 - 1929.

(28) ليك ديستريكت: اسم منطقة بمعنى الاسم: (منطقة البحيرة).

(29) ويردزوورث: وليم. شاعر انجليزي (1770 - 1850).

(30) شماليون: (نوردِكْس) نسبة إلى الشعوب التي تقطن شمالي أوروبا.

(31) بيتر بان: صبيّ في مسرحية «جيمس باري» لا يكبر ويعيش في مكان خيالي.

(32) جون فييّ: «فتاة صغيرة» باللغة الفرنسية.

(33) غاردي نور: محطة الشمال.

(34) أملاح الشم: أنواع من الأملاح (كالنشادر مثلاً) يساعد في حالات الإغماء.

(35) العبور: المقصود عبور القنال الانجليزي.

(36) مون ديو: يا إلهي. باللغة الفرنسية.

(37) الإشارة إلى: جوزيف جاك سيزار جوفر فيلدمارشال ارشال فرنسا. (1852 - 1931).

(38) رودان: فرانسوا أوغست. نحات فرنسي (1840 - 1917).

(39) سيزان: بول. رسام فرنسي (1839 - 1908).

(40) رينوار: بيير أوغست. رسام فرنسي (1841 - 1919).

(41) بيكاسو: بابلو. رسام ونحات إسباني (1881 - 1973) عاش في فرنسا.

(42) جيلبرت ستيوارت: رسام أمريكي (1755 - 1828).

(43) واشنطن: جورج. أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية من 1789 إلى 1797.

(44) اميرسون: رالف والدو. كاتب وشاعر أمريكي. (1803 - 1882).

(45) جيمس راسيل لوديل: شاعر وكاتب دراما أمريكي. (1819 - 1891).

General Organization of the Alexandria Library (GOAL

الفصل الثاني

الكفاح في سبيل الحياة

«وهنا أؤكد جاداً انني لا اقصد ان احطّ من قدر احدٍ أو أذمّ احداً. لانه، وبالرغم من انني استنسختُ كل شيء من كتاب الطبيعة، ونادراً ما انتجتُ شخصية او فعلاً من غير ملاحظاتي وخبرتي، إلا انني حرصت ابلغ الحرص على تمويه الأشخاص في ظروف ومنازل اجتماعية وألوان تختلف عن تلك التي لهم بالفعل، لدرجة يستحيل معها أن تحزرهم باي درجة من التأكدُ. وإذا حدث أبداً غير ذلك فإنما في حالات يكون الضعف الموصوف فيها تافهاً، وأنه مجرد ضعف بشري يمكن أن يسخر منه الشخص المعنيُّ نفسُه كما يفعل اي شخص آخر».

هنرى فليدنغ

- 1 -

كان «سكريبس أونيل» يبحث عن عمل. فأن يعمل بيديه شيء حسن. سار في الشارع مبتعداً عن مطعم الفاصولياء ومرّ بصالون «مكارثي» للحلاقة. لم يدخل صالون الحلاقة. بدا

صالون الحلاقة مغرياً، كما هو دائماً، لكن سكريبس يريد عملاً. انعطف انعطافاً حادّاً حول زاوية صالون الحلاقة وسار إلى الشارع الرئيسي في «بيتوسكي». كان شارعاً عريضاً أنيقاً تصطف على جانبيه أبنية من الطوب والحجر المدقوق. سار سكريبس فيه نحو ذلك الجزء من المدينة حيث يقع مصنع المضخات. وعلى باب المصنع وقف مأخوذاً بالدهشة. أيمكن أن يكون هذا حقاً مصنع المضخات؟ صحيح أن أعداداً كبيرة من المضخات كانت تتدفق من المبنى وتُصف تحت الثلج فيسكب العمال عليها دلاءً من الماء لتحفظ تحت طبقة من الجليد تحميها من الرياح كما يفعل أي نوع من الدهان، لكن هل هي مضخات حقاً؟ قد يكون كل ذلك خداعاً. صناع المضخّات هؤلاء أناس أذكياء.

«أقول» توجّه سكريبس بسؤال إلى عاملة كانت تسكب الماء على مضخة جديدة خام المظهر نُقلتْ لتوها خارجاً ووقفت باحتجاج تحت الثلج «هل هذه مضخات؟».

«ستكون كذلك في الوقت المناسب» قالت العاملة.

أدرك «سكريبس» أن المكان هو المصنع، ولن يستطيعوا خداعه حول ذلك. سار حتى الباب حيث لافتة كُتب عليها:

لا تدخل. أنت المقصود.

هل يمكن أن أكون المقصود بذلك؟ تساءل سكريبس. طرق

الباب ودخل. «أريد أن أكلّم المدير» قال وهو يقف بهدوء تحت الضوء الخافت.

كان العمال يمرون به حاملين المضخات الجديدة على أكتافهم وهم يدنونون بمقاطع من بعض الأغاني. مقابض المضخات تتأرجح باحتجاج صامت. بعض المضخات بلا مقابض. وفكر «سكرييس» في أنها هي الأكثر حظاً. تقدم منه رجل صغير الحجم. كان ذا بنية قوية، قصيراً عريض الأكتاف متجهّم الوجه.

«هل سألتَ عن المدير؟».

«نعم، يا سيدي».

«أنا المراقب هنا».

«تستطيع أن تستخدم وتفصل؟» سأله سكرييس.

«أقدر على واحدة بنفس سهولة الأخرى» أجاب المراقب.

«أريد عملاً».

«ألديك أي خبرة؟».

«ليس في المضخات».

«حسناً» قال المراقب «سنشغّلك بالقطعة. يوغي! تعال هنا» نادى على واحد من العمال كان يقف وينظر عبر نافذة المصنع «أرِ هذا الصديق الجديد أين يضع صرّته وكيف يجد طريقه بين هذه

الغرف». وقاس المراقب «سكرييس» من الأعلى إلى الأسفل. «أنا أستراليّ. آمل أن يعجبك العمل هنا» قال المراقب وانصرف.

تقدم المدعو «يوغي جونسون» مبتعداً عن النافذة وقال: «سعيد بمقابلتك». كان قصيراً مكتنزاً قوي البنية. واحدٌ من النوع الذي يمكن أن تراه في أي مكان. وبدا كرجل ذي تجربة. «مراقبك هو أول أسترالي أقابله» قال سكرييس.

«وهو ليس أسترالياً» قال يوغي «كان مع الاشتراكيين مرة خلال الحرب وترك ذلك فيه أثراً كبيراً».

«هل شاركت في الحرب؟» سأله سكرييس.

«نعم» أجاب يوغي جونسون «كنت أول رجل ذهب إلى الحرب من كاديلاك»[1].

«لابد أنها كانت تجربة هامّة».

«لقد عنَتْ لي الكثير» أجاب يوغي «تعال معي نتجول في المصنع وأريك ما نعمل».

تبع «سكرييس» الرجل وتجوّلا في مصنع المضخات. كان داخل المصنع مظلماً لكنه دافىء. والرجال العراة حتى خصورهم يمسكون بملاقط ضخمة المضخات التي كانت تتقدّم متدحرجة على جنزير لا نهاية له. يلتقطون الشوهاء منها ويضعون الصحيحة على جنزير آخر، لا نهاية له، ليحملها إلى غرفة التبريد. وآخرون ـ هنوداً في

غالبيتهم ـ يرتدون «وزرات»، يكسرون المضحات الشوهاء بمطارق وفؤوس ضخمة ويعيدون، بسرعة، تشكيلها فؤوساً وزنبركات عربات ومنْزَلِقات ترومبونات[2] وقوالب لصنع الطلقات النارية وكل النتاجات الثانوية الأخرى لمصنع مضخات ضخم. لا يضيع شيء، أشار يوغي. وفي إحدى زوايا غرفة التطريق الكبيرة قرفص عدد من الصبية الهنود يدمدمون فيما بينهم أناشيد بحر قبليةٍ قديمة ويصنعون شفرات حلاقة من الشظايا الصغيرة التي اقتطعت من المضخات لدى تشكيلها.

«يعملون عراة» قال يوغي «يتم تفتيشهم عند خروجهم. فهم أحياناً يخبئون الشفرات ويخرجونها معهم لاستعمالها في التهريب.

«لا بدّ أن ذلك يسبب خسارة كبيرة» قال سكريس.

«لا» أجاب يوغي «يعثر المفتشون على معظمها».

وفي الطابق العلوي، في غرفة مستقلة كان يعمل كهلان. فتح يوغي الباب فنظر أحد الرجلين من فوق نظاراته الفولاذية وقطب حاجبيه وقال:

«تسببتَ في تيار هوائي».

«أغلق الباب» قال الرجل الآخر بصوت كبار السنّ المرتفع المتذمّر.

«إنهما العاملان ـ باليد عندنا» قال يوغي «يصنعان كل

المضخات التي يرسلها المصنع إلى المسابقات الكبرى في صناعة المضخات. أتذكرُ بيرلِسْ باونَدر[3]، التي فازت في مسابقة المضخات في إيطاليا حيث قُتِلَ فرانكي داوزن؟».

«قرأت عن ذلك في الصحف» قال سكرييس.

«السيد بورو، هناك في الزاوية صنع بيرلِسْ باوندر، كلها بيديه» قال يوغي.

«نحتها من الفولاذ بهذه السكين» ورفع السيد بورو سكيناً ذا شفرة قصيرة تشبه الموسى «واستغرقني صنعها ثمانية عشر شهراً».

«كانت بيرلِسْ باوندر، مضخّة رائعة بالفعل» قال الرجل الصغير العجوز ذو الصوت المرتفع «لكننا الآن نعمل في واحدة ستُري كعبيها[4] لأي مضخة أجنبية، أليس كذلك يا هنري؟».

«ذلك هو السيد شو» قال يوغي بصوت خافت: «وهو، ربما، أعظم صانع مضخات على قيد الحياة».

«اذهبوا يا شباب واتركونا» قال السيد بورو، كان ينحت بثقة ويداه الضعيفتان ترتعشان قليلاً بين كل ضربة وأخرى.

«دع الأولاد يراقبون» قال السيد شو، «من أين أنت أيها الشاب؟».

«أتيت توّاً من مانسيلونا» أجاب سكرييس «هجرتني زوجتي».

النادلة؟ ماذا جرى لها في باريس؟ عليه أن يعرف أكثر عن باريس هذه. يوغي جونسون كان هناك. سوف يستجوب يوغي. سيدفعه إلى الكلام. سيدفعه إلى قول كل ما يعرف. وهو يعرف بعض الحيل لذلك.

تقدم سكريبس نازلاً شوارع «بيتوسكي» إلى مطعم الفاصولياء وهو يراقب غروب الشمس فوق ميناء «بيتوسكي»، البحيرة متجمدة وكتل ضخمة من الجليد تنتأ فوق الماء المتكسّر. كان يرغب في دعوة «يوغي جونسون» ليأكل معه لكنه لم يجرؤ. ليس الآن. فيما بعد، كل شيء في أوانه. الأفضل عدم استعجال الأمور مع رجل مثل «يوغي». من هو يوغي على كل حال؟ هل شارك في الحرب فعلاً؟ وماذا كانت الحرب تعني له؟ هل كان حقاً أول رجل يتطوع من «كاديلاك»؟ وأين هي كاديلاك؟ ستأتي الإجابة مع الزمن.

فتح «سكريبس أونيل» الباب ودخل مطعم الفاصولياء. نهضت النادلة المسنة عن الكرسي حيث كانت تجلس وتطالع عدد ما وراء البحار من جريدة «مانشيستر غارديان»، ووضعت الجريدة ونظاراتها ذات الإطار الفولاذي على ظهر آلة النقد.

«مساء الخير» قالت ببساطة «حسن أن تعود».

اختلج شيء في أعماق «سكريبس أونيل» واجتاحه شعور عجز عن وصفه.

«كنت أعمل طوال النهار» ونظر إلى النادلة وأضاف «من أجلكِ».

«ما أجمل ما تقول!» قالت النادلة وضحكت بخجل «وأنا كنت أعمل طوال النهار من أجلك».

ظهرت الدموع في عيني «سكريس» واختلج شيء ما داخله. تقدّم ليتناول يد النادلة المسنّة فألقتها بوقار في يده. «أنتِ امرأتي» قال، فظهرت الدموع في عينيها.

«أنت رجلي» قالت.

«مرة أخرى أقول، أنت امرأتي» نطق سكريس الكلمات جادّاً. واختلج شيء ما داخله ثانية. وأحسّ أنه لا يستطيع كبح دموعه.

«ليكن هذا احتفال زواجنا» قالت النادلة المسنة. وشدّ «سكريس» على يدها، وقال ببساطة «أنت امرأتي».

«أنت رجلي وأكثر من رجلي» ونظرت في عينيه «أنت كل أمريكا بالنسبة لي».

«هيا نخرج» قال سكريس.

«هل معك طائرك» سألت النادلة وهي تضع مئزرها جانباً وتطوي نسخة من أسبوعية «مانشستر غارديان». سوف أحمل معي «الغارديان» إن كنت لا تمانع» قالت وهي تلف مئزرها «إنه عدد جديد ولم أقرأه بعد».

النادلة؟ ماذا جرى لها في باريس؟ عليه أن يعرف أكثر عن باريس هذه. يوغي جونسون كان هناك. سوف يستجوب يوغي. سيدفعه إلى الكلام. سيدفعه إلى قول كل ما يعرف. وهو يعرف بعض الحيل لذلك.

تقدم سكريبس نازلاً شوارع «بيتوسكي» إلى مطعم الفاصولياء وهو يراقب غروب الشمس فوق ميناء «بيتوسكي»، البحيرة متجمدة وكتل ضخمة من الجليد تنتأ فوق الماء المتكسّر. كان يرغب في دعوة «يوغي جونسون» ليأكل معه لكنه لم يجرؤ. ليس الآن. فيما بعد، كل شيء في أوانه. الأفضل عدم استعجال الأمور مع رجل مثل «يوغي». من هو يوغي على كل حال؟ هل شارك في الحرب فعلاً؟ وماذا كانت الحرب تعني له؟ هل كان حقاً أول رجل يتطوع من «كاديلاك»؟ وأين هي كاديلاك؟ ستأتي الإجابة مع الزمن.

فتح «سكريبس أونيل» الباب ودخل مطعم الفاصولياء. نهضت النادلة المسنة عن الكرسي حيث كانت تجلس وتطالع عدد ما وراء البحار من جريدة «مانشيستر غارديان»، ووضعت الجريدة ونظاراتها ذات الإطار الفولاذي على ظهر آلة النقد.

«مساء الخير» قالت ببساطة «حسن أن تعود».

اختلج شيء في أعماق «سكريبس أونيل» واجتاحه شعور عجز عن وصفه.

«كنت أعمل طوال النهار» ونظر إلى النادلة وأضاف «من أجلكِ».

«ما أجمل ما تقول!» قالت النادلة وضحكت بخجل «وأنا كنت أعمل طوال النهار من أجلك».

ظهرت الدموع في عيني «سكريبس» واختلج شيء ما داخله. تقدّم ليتناول يد النادلة المسنّة فألقتها بوقار في يده. «أنتِ امرأتي» قال، فظهرت الدموع في عينيها.

«أنت رجلي» قالت.

«مرة أخرى أقول، أنت امرأتي» نطق سكريبس الكلمات جادّاً. واختلج شيء ما داخله ثانية. وأحسّ أنه لا يستطيع كبح دموعه.

«ليكن هذا احتفال زواجنا» قالت النادلة المسنة. وشدّ «سكريبس» على يدها، وقال ببساطة «أنت امرأتي».

«أنت رجلي وأكثر من رجلي» ونظرت في عينيه «أنت كل أمريكا بالنسبة لي».

«هيا نخرج» قال سكريبس.

«هل معك طائرك» سألت النادلة وهي تضع مئزرها جانباً وتطوي نسخة من أسبوعية «مانشستر غارديان». سوف أحمل معي «الغارديان» إن كنت لا تمانع» قالت وهي تلف مئزرها «إنه عدد جديد ولم أقرأه بعد».

«أنا مغرم بالغارديان» قال سكريس «وعائلتي كانت تشتريها منذ ما لا أستطيع أن أتذكر. والدي كان من كبار المعجبين بجلادستون»[6].

«ذهب والدي إلى (إيتون)[7] مع جلادستون» قالت النادلة المسنّة «والآن أنا جاهزة».

ارتدت معطفها ووقفت متهيأة وفي يدها مئزرها، ونظاراتها ذات الإطار الفولاذي في محفظتها السوداء البالية من الجلد المراكشي، ونسختها من «مانشستر غارديان».

«أليس لديك قبعة» سأل سكريس.

«لا».

«إذن سأشتري لكِ واحدة» قال سكريس بحنان.

«ستكون هدية الزفاف» قالت النادلة المسنة وظهرت الدموع في عينيها ثانية.

«والآن، هيا بنا» قال سكريس. خرجت النادلة من وراء المنضدة الطويلة، ومعاً، يداً بيد، خرجا معاً في الليل.

رفع الطاهي الأسود بويب النافذة وأرسل نظرة من مطبخه «لقد رحلا» قال ضاحكاً «ذهبا في الليل، حسناً، حسناً، حسناً» وأغلق النافذة بهدوء، وظهر عليه بعض التأثر.

- 3 -

عاد «سكرييس أونيل» والنادلة المسنّة إلى مطعم الفاصولياء بعد نصف ساعة زوجاً وزوجة. مطعم الفاصولياء لم يتغير. المشرب، الممالح، السكّريات، زجاجة صلصة البندورة وزجاجة صلصة «ووستر شاير»[8]. النافذة الصغيرة التي تؤدي إلى المطبخ. وخلف المشرب كانت تقف النادلة البديلة، فتاة ممتلئة بادية المرح، ترتدي مئزراً أبيض. وعلى المشرب جلس بائع جوّال يقرأ إحدى صحف «ديترويت»[9]. كان البائع يأكل شريحة لحم مع البطاطا المفرومة المحمّرة. شيء جميل حدث لسكرييس والنادلة المسنّة. وهما الآن جائعان ويريدان أن يأكلا.

نظرت النادلة المسنّة إلى سكرييس ونظر سكرييس إلى النادلة المسنّة. البائع الجوّال يقرأ جريدته ويضع، من آن لآخر، قليلاً من الصلصة على البطاطا المفرومة المحمّرة. والنادلة الأخرى، ماندي خلف المنضدة الطويلة في مئزرها الأبيض المنشّى حديثاً. الصقيع على النوافذ، وفي الداخل دفء، وفي الخارج برد. وطائر «سكرييس» الآن مشعّث بعض الشيء، جاثم على المنضدة يسوّي ريشه بمنقاره.

«إذن، عدتما» قالت ماندي النادلة «قال الطباخ إنكما خرجتما في الليل». نظرت النادلة المسنّة إلى ماندي، عيناها ساطعتان وصوتها هادىء وهو الآن ذو جَرْس أكثر عمقاً وحيوية. «إننا الآن

زوج وزوجة» قالت برقّة «تزوجنا منذ قليل. ماذا تريد أن تتعشّى يا عزيزي سكريبس؟»

«لا أعرف» قال سكريبس وأحسّ بقلق لا يعرف له سبباً، وبشيء ما يختلج في داخله.

«ربما أكلتَ كثيراً من الفاصولياء يا عزيزي سكريبس» قالت النادلة المنسّة، والآن، زوجته. ونظر البائع الجوال من فوق جريدته. فلاحظ سكريبس أنها «ديترويت نيوز»[10]. كانت جريدة جيدة.

«جريدة جيدة تلك التي تقرأها» قال سكريبس للبائع الجوال.

«إنها جيدة، (ذي نيوز)»، قال البائع الجوال «أنتما الاثنان في شهر عسلكما؟»

«نعم» قال سكريبس «إننا الآن زوج وزوجة».

«حسناً» قال البائع الجوّال «جميل أن تكون كذلك، أنا نفسي رجل متزوج».

«أنت متزوج؟» قال سكريبس «هجرتني زوجتي. كانت في (مانسيلونا)».

«لنتجاهل الحديث عن ذلك تماماً يا عزيزي سكريبس» قالت السيدة سكريبس «لقد رويت هذه القصة عدة مرات».

«نعم يا عزيزتي» قال سكريبس موافقاً. وتملكه إحساس غامض

بعدم الثقة في نفسه. وأحس بشيء يختلج في داخله. نظر إلى النادلة المدعوة (ماندي) وهي تقف، نشيطة ومتألقة، في مئزرها الأبيض المنشى. ونظر إلى يديها. يدان عفيّتان هادئتان وقديرتان على أعباء عملها كنادلة.

«جرّبْ هذه الشرائح مع البطاطا المفرومة المحمّرة» اقترح البائع الجوّال «لديهم هنا شرائح طيبة».

«هل ترغبين بواحدة يا عزيزتي؟» سأل سكريبس زوجته.

«آخذ زبدية حليب مع البسكوت فقط» قالت زوجة سكريبس المسنّة «أما أنت فاطلب ما تريد يا عزيزي».

«هاكِ الحليب والبسكوت يا (ديانا)» قالت ماندي وهي تضعها على المنضدة الطويلة «هل تريد شريحة يا سيدي؟»

«نعم» واختلج شيء فيه.

«ناضجة أم لا؟»

«غير ناضجة».

استدارت النادلة ونادت عبر النافذة:

«شريحة لشخص واحد. غير ناضجة».

«شكراً» قال سكريبس، وأرسل نظرة إلى ماندي. لديها موهبة الحديث الساحر هذه الفتاة. وسحر الحديث هو الذي اجتذبه إلى

زوجته الحاليّة. سحر الحديث وماضيها الغريب. انجلترا، «ليك كانتري»[12]، سكريبس يسير في «ليك كانتري» مع «ووردزوورث». حقل من النرجس الذهبي. والريح تهب على «وندمير»[13]. وبعيداً، ربما، إيل متحفّز. لكن ذلك كان أبعد شمالاً، في سكوتلندا. إنهم عرق شديد الاحتمال هؤلاء السكوتلنديون في معاقلهم الجبلية. «هاري لودر»[14] وغليونه. نجديّو[15] سكوتلندا في الحرب العظمى. لماذا لم يشارك، هو سكريبس، في الحرب؟ ذلك هو مأخذ «يوغي جونسون» عليه. كانت الحرب ستعني له الشيء الكثير، هو سكريبس. لماذا لم يشارك فيها؟ لماذا لم يسمع بها في الوقت المناسب. ربما كان عجوزاً. ومع ذلك، خذ هذا الجنرال الفرنسي العجوز «جوفر». كان بالتأكيد أكثر شباباً من ذلك الجنرال العجوز. الجنرال «فوش»[16] يبتهل طالباً النصر. القوات الفرنسية راكعة على طول «شومان دي دام»[17] تصلي للانتصار. الألمان يقولون كعادتهم «جوت ميت أونس»[18]. يا للسخرية! هو لم يكن، بالتأكيد، أكبر سناً من ذلك الجنرال الفرنسي «فوش». تساءل في نفسه.

وضعت النادلة «ماندي» شريحة اللحم والبطاطا المفرومة المحمّرة أمامه على المشرب. وعندما وضعت الطبق، وللحظة واحدة، لمست يدُها يدَه. فأحسّ «سكريبس» برعشة تسري في بدنه. الحياة أمامه. وهو لم يكن رجلاً عجوزاً. لم لا توجد الآن حروب؟ قد توجد. الرجال يقتتلون في الصين، الصينيون، الصينيون يقتلون بعضهم

بعضاً. من أجل ماذا؟ تساءل سكريس. لماذا كل هذا على كل حال؟.

انحنت «ماندي» النادلة الممتلئة، إلى الأمام. «قل لي» قالت «هل حدثتك عن كلمات «هنري جيمس»[19] الأخيرة؟

«حقاً يا عزيزتي ماندي» قالت السيدة سكريس «أنك رويتِ هذه القصة كثيراً».

«لنسمعها» قال سكريس. «أنا كثير الاهتمام بهنري جيمس». هنري جيمس. هنري جيمس. هذا الإنسان الذي ترك بلاده إلى انجلترا ليعيش بين الانجليز. لماذا فعل ذلك؟ من أجل ماذا ترك أمريكا؟ أليست له جذور هنا؟ أخوه وليام. بوسطن. البراغماتية. جامعة هارفارد. العجوز «جون هارفارد» بإبزيم حذائه الذهبي. شارلي بريكلي. إدي ماهان. أين هم الآن؟

«حسناً» ابتدأت ماندي «أصبح هنري جيمس واحداً من الرعايا البريطانيين وهو على فراش الموت. وفي الحال، وبمجرد أن سمع الملك أن هنري جيمس أصبح من الرعايا البريطانيين أرسل له أعلى وسام يمنحه: وسام الاستحقاق».

«ألـ و. أ»[20] أوضحت السيدة سكريس المسنّة.

«هو ذاك» قالت النادلة «جاء الأستاذ «غوس»[21] و«سانتسبيري»[22] مع الرجل الذي حمل الوسام. كان هنري جيمس ممدداً على فراش الموت وعيناه مغلقتان. وشمعة واحدة على

الطاولة قرب سريره. سمحت لهم الممرضة بالاقتراب من السرير فوضعوا وشاح الوسام حول عنق جيمس والوسام على الملاءة فوق صدر هنري جيمس. وانحنى الاستاذ «غوس» و«سانتسبيري» ومسّدا وشاح الوسام. ولم يفتح هنري جيمس عينيه أبداً. طلبت الممرضة منهم أن يغادروا الغرفة فخرجوا جميعاً. وبعد ذلك تحدث «هنري جيمس» إلى الممرضة. لم يفتح عينيه أبداً. «أيتها الممرضة» قال هنري جيمس «أطفئي الشمعة، يا ممرضة، ووفّري علي خجلي». كانت هذه كلماته الأخيرة.

«كان جيمس كاتباً حقيقياً» قال سكريبس أونيل، وقد أثرت فيه الحكاية بقوة.

«أنت لا تحكينها دائماً بنفس الطريقة يا عزيزتي» قالت السيدة سكريبس مبدية الملاحظة لماندي. وظهرت الدموع في عيني ماندي وقالت «إنني شديدة التأثر تجاه هنري جيمس».

«ماذا حدث للسيد هنري جيمس؟» سأل البائع الجوال «ألم تكن أمريكا ملائمة له؟».

كان «سكريبس أونيل» يفكر في النادلة «ماندي». يا لها من خلفية تلك التي لابد أن تمتلكها هذه الفتاة! يا لها من ذخيرة في الحكايات والنوادر! يستطيع المرء أن يقطع شوطاً بعيداً بمساعدة امرأة كهذه! ربّت على الطائر الصغير الذي كان يجثم على منضدة الغداء أمامه. ونقر الطائر إصبعه. هل هو صقر هذا الطائر الصغير؟

بازيّ، ربما، من أحد مراكز تدريب البزاة في ميتشيجان. أم أنه أبو الحنّاء؟ يكدح وينقّب بحثاً عن الدودة المبكرة في مرج أخضر في مكان ما؟ تساءل سكريس.

«ما اسم طائرك» سأل البائع الجوال.

«لم أسمه بعد. ماذا كنت تسميه لو كان لك؟».

«لم لا تسمّيه آرييل؟» سألت ماندي.

«أو (باك)» تدخّلتْ السيدة سكريس.

«ماذا يعني الاسم؟» سأل البائع الجوال.

«إنه إحدى شخصيات شكسبير» أوضحت ماندي.

«ياه، أعط الطائر فرصة».

«ماذا كنت تسميه» توجه سكريس إلى البائع الجوّال.

«إنه ليس ببغاء، هل هو؟» سأل البائع الجوّال «إن كان ببغاء فيمكنك أن تسمّيه (بولي)».

«توجد شخصية في (اوبرا الشحّادين) تدعى (بولي)» أوضحت ماندي.

تساءل «سكريس»: قد يكون الطائر ببغاء. ببغاء تاه من بيت مريح مع خادمة عجوز. الأرض البور لعانس ما من «نيو انجلند»[23].

«الأفضل أن تنتظر لترى ما يصير إليه» قال البائع الجوّال ناصحاً

«فلديك من الوقت ما يكفي لتسميته».

لهذا البائع الجوّال أفكار صائبة. وهو، سكريبس، لا يعرف جنس الطائر أهو ذكر أم أنثى.

«انتظر لترى إن كان سيضع بيضاً» اقترح الجوّال. ونظر سكريبس في عيني البائع الجوّال. فقد نطق الرجل ما يدور في رأسه.

«تعرف بعض الأشياء أيها البائع الجوّال» قال.

«حسناً» أعلن البائع الجوّال موافقته بتواضع «لم أتجول كل هذه السنين عبثاً».

«أنت محقٌّ أيها الصديق» قال سكريبس.

«لقد حصلت على طائر جميل أيها الأخ» قال البائع الجوّال «تريد أن تحتفظ به».

لقد عرف سكريبس. هؤلاء الباعة يعرفون بعض الأشياء. يصعدون ويهبطون فوق وجه أمريكتنا العظيمة، وعيونهم مفتّحة. ليسوا بلهاء.

«اسمع» قال البائع الجوال. دفع قبعته السوداء عن حاجبيه إلى الوراء وانحنى وبصق في المبصقة النحاسية الصفراء العالية «أريد أن أحكي لك عن شيء جميل حدث لي مرة في بي سيتي»(24).

انحنت ماندي أماماً. وانحنت السيدة سكريبس مصغيةً باتجاه

البائع الجوال، نظر البائع معتذراً إلى «سكريس» وشدّ الطائر بسبابته. وقال:

«أحدثك عن ذلك في وقت آخر يا أخي» وفهم سكريس. ومن المطبخ، عبر النافذة الصغيرة وصل صوت ضحكة شجية عالية. وأصغى سكريس، وتساءل، هل هي ضحكة الزنجيّ؟

- 4 -

سكريس، في الصباحات، يسير متكاسلاً إلى مصنع المضخات. السيدة سكريس تراقبه من النافذة وهو يصعد الشارع. لا وقت الآن لقراءة «الغارديان». لا وقت للقراءة عن السياسة الانجليزية. لا وقت لقلق على مشكل الوزارة، بعيداً هناك، في «فرنسا». الفرنسيون شعب عجيب. جان دارك[25]. ايفاليجالْيينَ[26]. كليمانسو[27]. جورج كاربنتيه. ساشا جيتري. إيفون برانتامب. غروك. لي فراتلّيني. جلبير سالد. إلى (ديال). جائزة ديال. ماريان مور[28]. ي. كومينغز[29]. (الحجرة الواسعة)، (دار الغرور). فرانك كراونتشيلد. لماذا كل هذا؟ إلى أين يقودها ذلك؟

لديها الآن، رجل. رجل لها وحدها. هل تقدر على الاحتفاظ به؟ هل تستطيع الاحتفاظ به لها وحدها؟ تساءلت السيدة سكريس.

السيدة سكريس، النادلة المسنة سابقاً، هي الآن زوجة

«سكريس أونيل» صاحب وظيفة جيدة في مصنع المضخات. «ديانا سكريس». «ديانا» كان اسمها. وكان اسم أمها أيضاً. «ديانا» تنظر في المرآة وتتساءل إن كانت تستطيع الاحتفاظ به. يكاد ذلك أن يصبح مشكلة. لماذا حدث وقابل «ماندي»؟ هل ستكون لديها الجرأة لتوقف الذهاب مع سكريس إلى مطعم الفاصولياء؟ لتناول الطعام؟ لا تستطيع ذلك. فهو سيذهب وحده. لقد أدركت ذلك ـ ولا فائدة من التعامي عنه. سيذهب وحده ويتحدث مع «ماندي». نظرت «ديانا» في المرآة. هل تستطيع الاحتفاظ به؟ هل تستطيع الاحتفاظ به؟ هذا الهاجس يلحّ الآن عليها.

كل ليلة في مطعم الفاصولياء. وهي لا تستطيع الآن أن تسميه مطعم الفاصولياء ـ ذلك يسبب غصة في حلقها. ويجعلها تحس بتصلب في حنجرتها واختناق. صار سكريس يتحدث مع «ماندي» كل ليلة في المطعم. تحاول الفتاة أن تأخذه منها. هو، سكريس رجلها. تحاول أن تأخذه. تأخذه منها. هل تقدر، هي «ديانا»، أن تحتفظ به.

ليست أفضل من مومس «ماندي» هذه. أهكذا يكون التصرف؟ أهذا ما يجب عمله؟ تسعى وراء رجل امرأة أخرى؟ تفرّق بين رجل وزوجته؟ تحطم بيتاً؟ وبهذه الذكريات الأدبية المطوّلة، هذه النوادر التي لا نهاية لها؟ كان «سكريس» مأخوذاً بماندي. واعترفت ماندي لنفسها بذلك. لكنها ربما تستطيع الاحتفاظ به. فهذا هو ما

يهم الآن. أن تحتفظ به. أن تحتفظ به. لا أن تخلي سبيله. تجعله يبقى.. ونظرت في المرآة.

«ديانا» تشترك في مجلة «فورم»[30]. «ديانا» تقرأ «منتور»[31]. «ديانا» تقرأ «وليام ليون فيلبس» في «سكر بنرز». «ديانا» تعبر الشوارع المتجمدة للمدينة الشمالية الصامتة حتى المكتبة العامة لتقرأ «المختار الأدبي» - مراجعات الكتب.

وتنتظر «ديانا» ساعي البريد تحت الثلج ليحضر لها «بوكمان»[32]. و«ديانا» تحت الثلج تنتظر ساعي البريد ليحضر لها «ساندي ريفيو أوف ليتريتشر»[33].

و«ديانا»، عارية الرأس الآن، تقف بين أكوام الثلج المتراكم تنتظر ساعي البريد ليحضر لها ملحق «نيويورك تايمز» الأدبي. هل أفاد ذلك في شيء؟ أو أدى إلى الاحتفاظ به؟

في البداية بدا كأن ذلك كان مفيداً. حفظت «ديانا» افتتاحيات «جون فرار» عن ظهر قلب. وابتهج سكريبس. سطعت عيناه ببعض الضوء الذي كان يسطع فيهما من قبل. لكنه تلاشى. خطأ تافه في التعبير، هفوة في فهم تعبير ما، بعض الاختلاف في موقفها أدى بكل شيء إلى الفشل. لكنها تستمر. لم ترض بالهزيمة. هو رجلها ولابد أن تحتفظ به. نظرت بعيداً عبر النافذة وفتحت المجلة الملقاة على طاولتها. مجلة «هاربر». مجلة «هاربر» بشكل جديد. مجلة «هاربر» معدّلة ومهذبة. قد يكون الحل في ذلك. تساءلتْ.

كان الربيع يقترب. رائحة الربيع في الهواء(*). ريح دافئة (تشينوك) تهب. كان العمال يعودون إلى بيوتهم من المصنع. وطائر يغني في قفصه. «ديانا» تنظر عبر النافذة وهي ترقب عودة رجلها «سكريس» صاعداً الشارع. هل تقدر على الاحتفاظ به؟ هل تستطيع الاحتفاظ به؟ وإذا لم تتمكن من الاحتفاظ به هل سيترك لها طائره؟ لقد أحست في الأيام الأخيرة أنها لا تستطيع الاحتفاظ به.

فحين كانت تلمسه، في ليالي هذه الأيام الأخيرة، كان يتكور مبتعداً عنها. تلك إشارة صغيرة، لكن الحياة إشارات صغيرة كهذه. أحست أنها لا تستطيع الاحتفاظ به، وعندما نظرت عبر النافذة سقطت من بين يديها المرتعشتين نسخة «ستتشاري ماغازين»[34]، «سنتشاري» لها محرر جديد. صفحات أكثر. «جلين فرانك» راح ليصبح رئيس جامعة كبيرة في مكان ما. مزيد من كتابات الأخوة «فان دورين»[35] في المجلة. وأحست «ديانا» أن هذا قد يحدث الأثر الذي تريده. فتحت مجلة «سنتشاري» بسرور وقرأت فيها الصباح بطوله. بعد ذلك بدأت الريح تهب، ريح التشينوك الدافئة، فأدركت أن «سكريس» سيكون في البيت بعد قليل. الرجال يهبطون الشارع بأعداد تتزايد. هل «سكريس» بينهم؟ ولم ترغب

(*) ملاحظة للكاتب: هذا هو نفس اليوم الذي ابتدأت فيه القصة.

في استعمال نظاراتها لتراه. أرادت أن تكون نظرة «سكريس» الأولى إليها وهي في أحسن حال. وبينما كان يقترب كانت الثقة التي بنتها على مجلة «سنتشاري» تضعف. لقد أمّلت أن تحصل منها على شيء يمكنها الاحتفاظ به. لكنها الآن غير واثقة من ذلك.

كان «سكريس» ينزل الشارع وسط حشد من العمال المتحمسين. رجال أثارهم الربيع. وسكريس يؤرجح حافظة غدائه. «سكريس» يلوح مودعاً العمال الذين تقاطروا واحداً واحداً وراء الآخر وهم يدخلون في مكان كان حانة فيما مضى. سكريس لا ينظر إلى النافذة. سكريس يصعد الدرج. سكريس يقترب. سكريس يقترب. سكريس هنا.

«مساء الخير يا عزيزي سكريس» قالت «كنت اقرأ قصة بقلم «روث ساكو».

«مرحباً يا ديانا» أجاب سكريس، ووضع حافظة غدائه، وبدت هي عجوزاً متعبة، لكنه يستطيع أن يظهر بمظهر المؤدب. سألها:

«عن ماذا كانت القصة يا ديانا؟»

«عن فتاة صغيرة في «إيووا» قالت ديانا وتقدمت إليه. «إنها عن الناس في البلاد. لقد ذكرتني قليلاً بموطني (ليك كانتري)».

«هكذا؟» سأل سكريس. لقد اكتسب بعض القسوة في مصنع المضخات. حديثه صار أكثر إيجازاً، أقرب إلى حديث هؤلاء العمال الشماليين القساة، لكن عقله لم يتغير.

«هل تريدني أن أقرأ جزءاً منها؟» سألته ديانا «إنها صفحات جميلة».

«ما رأيك في أن ننزل إلى مطعم الفاصولياء؟» سأل سكريس.

«كما تريد يا عزيزي» قالت ديانا. ثم انكسر صوتها «أحب ـ آه، أحب لو أنك لم تر هذا المكان أبداً!». مسحت دموعها. لكن سكريبس لم ير حتى هذه الدموع. «سوف أحضر الطائر يا عزيزي» قالت ديانا «فهو لم يخرج طوال النهار».

ومعاً، نزلا الشارع إلى مطعم الفاصولياء. لم يسيرا يداً بيد. سارا مثل الكهول المتزوجين كما يقال. حمل السيد سكريبس قفص الطائر. وكان الطائر سعيداً بالهواء الدافيء. ومرَّ بهما رجال يترنحون وقد أسكرهم الربيع. كثير من هؤلاء الرجال كان يتحدث مع سكريبس. لقد صار معروفاً ومحبوباً في المدينة. وبعضهم كان وهو يمر مترنحاً يرفع قبعته للسيدة سكريبس. وهي كانت ترد بغموض. لو أستطيع الاحتفاظ به، كانت تفكر، لو أستطيع الاحتفاظ به.

وحين سارا على طول جانب الطريق المغطى بالثلج الموحل في تلك المدينة الشمالية راح شيء يدق في رأسها. ربما كان ذلك إيقاع سيرهما معاً. لا أستطيع الاحتفاظ به. لا أستطيع الاحتفاظ به. لا أستطيع الاحتفاظ به.

أمسك سكريبس بذراعها وهما يقطعان الشارع. وحين لمست

يده ذراعها أدركت ديانا أن ذلك صحيح. لن تستطيع الاحتفاظ به أبداً. مرت بهما في الشارع جماعة من الهنود. هل يسخر الهنود منها أم أن ذلك هو تهريج قَبَليّ؟ لم تعرف ديانا. فكل ما تعرفه كان ذلك الإيقاع الذي يدق في رأسها. لا أستطيع الاحتفاظ به. لا أستطيع الاحتفاظ به.

للقارىء وليس للطابع. فما الفرق عند الطابع؟ ومن هو الطابع على أي حال؟ «جوتنبرج»[36]. إنجيل جوتنبرج. «كاكستون»[37]. «كاسلون»[38] ذو الوجه المفرود اثنا عشر بنطاً. المنضّدة السطرية[39]. والكاتب مثل ولد صغير يُرسَل ليلقي نظرة على حروف الطباعة الصغيرة. والكاتب مثل شاب يرسل من أجل مفاتيح الطباعية. آه، هؤلاء الطابعون يعرفون بعض الحيل.

(إذا اختلط الأمر على القارىء أوضح أننا سنعود الآن إلى حيث ابتدأت القصة مع «يوغي جونسون» و«سكريبس أونيل». في نفس مصنع المضخّات مع هبوب ريح التشينوك الدافئة. وكما ترى فقد خرج «سكريبس أونيل» الآن من مصنع المضخّات. وهو الآن في طريقه إلى مطعم الفاصولياء مع زوجته التي تخشى أن لا تستطيع الاحتفاظ به. ونحن، شخصياً، لا نعتقد أنها تستطيع. لكن القارىء سيرى بنفسه. سنترك الزوجين في طريقهما إلى مطعم الفاصولياء ونعود لنتابع «يوغي جونسون». نريد أن يحب القارىء «يوغي جونسون». ومنذ الآن، إذا ما تعب بعض القراء، ستسير القصة أسرع قليلاً.

وسنحاول أيضاً تقديم بعض الملح الجيدة. هل يكون ذلك اعتداء على ثقة القارىء بنفسه إذا قلنا له إننا أخذنا أفضل هذه النوادر من السيد «فورد مادوكس فورد[40]»؟ ندين له بالشكر ونأمل من القارىء مثل ذلك. على كل حال سنذهب الآن مع يوغي جونسون. يوغي جونسون، كما قد يتذكر القارىء، هو الشخص الذي كان في الحرب. وفي بداية القصة كان يخرج لتوّه من مصنع المضخات.

من الصعب أن تكتب هكذا، تبدأ بالعودة إلى الوراء، ويأمل الكاتب أن يدرك القارىء ذلك، وأن لا يحمل ضغينة لهذه الكلمة التوضيحية. أنا واثق أنني سأشعر بالسرور لدى قراءة أي شيء يكتبه القارىء، وآمل أن يبدي القارىء نفس التسامح. وإذا رغب أي من القراء في أن يرسل لي ما كتبه، سواء للنقد أو للنصيحة، فأنا دائماً بعد كل ظهر في مقهى «كافي دي دوم» أتحدث عن الفن مع «هارولد ستيرنز» و «سنكلير لويس»[41]. ويستطيع القارىء أن يحضر ومعه نتاجه أو أن يرسله بواسطة مصرفي، إذا كان لي مصرف. والآن، إذا كان القارىء مستعداً ـ وتأكد أنني لا أرمي إلى استعجال القارىء أبداً ـ سنعود إلى «يوغي جونسون». لكنني أرجو أن تتذكّر أنه بينما نعود إلى «يوغي جونسون» فإن «سكريبس أونيل» وزوجته في طريقهما إلى مطعم الفاصولياء. ماذا سيحدث لهما. هناك؟ لا أعلم، وآمل أن يساعدني القارىء في ذلك».

○ ○ ○

الهوامش:

(1) كاديلاك: اسم مدينة.

(2) الترومبون: آلة نفخ موسيقية. والمتزلقة هي الجزء من الآلة الذي يتحرك أماماً وخلفاً لتصدر النغمات المختلفة.

(3) بيرلِش باوندر: اسم المضخة. ومعنى الاسم هو التي لا تضاهى أو لا تقدر بثمن.

(4) تُري كعبيها: تسبق أو تفوز. دلالة الجودة.

(5) تطويق المكبس: إحاطة المكبس بطوق خاص.

(6) جلادستون: رئيس وزراء بريطاني بين سنوات (1868 - 1894).

(7) إيتون: مدينة في وسط انجلترا في بيركشاير.

(8) ووسترشاير: صلصة حارة نسبة إلى مدينة بنفس الاسم في انجلترا.

(9) ديترويت: مدينة أمريكية قرب ميتشيغان.

(10) ديترويت نيوز: اسم الجريدة ومعنى الاسم هو: أخبار ديترويت.

(11) ذي نيوز: اختصار اسم الجريدة ومعنى الاختصار هو «الأخبار».

(12) ليك كانتري: اسم موطن النادلة في انجلترا، وقد سماها الكاتب فيما سبق (ليك ديستريكت).

(13) وندمير: كبرى بحيرات انجلترا. شمال غرب انجلترا في كامبريا.

(14) هاري لودر: مغني اسكتدلندي (1870 - 1950).

(15) نجديّو: جمع نجدّي. سكان المرتفعات في سكوتلندا.

(16) فوش: فرديناند. مارشال فرنسا (1851 - 1929).

(17) شومان دي دام: اسم شارع. (شارع السيدات).

(18) تعبير بالالمانية معناه «جيد معنا».

(19) هنري جيمس: 1843 - 1916 كاتب انجليزي (ولد في امريكا) وهو ابن

الفيلسوف الأمريكي بنفس الاسم 1811 - 1882.

(20) و. أ: اختصار وسام الاستحقاق.

(21) غوس: ادموند وليام (سير). شاعر وناقد انجليزي 1849 - 1928.

(22) سانتسبيري: جورج ادوارد بيتمان. ناقد انجليزي (1845 - 1933).

(23) نيو انجلند: الجزء الشمالي الشرقي من الولايات المتحدة، ويتضمن ولاية ميتشيجان التي تدور فيها أحداث الرواية إضافة إلى ولايات أخرى.

(24) بي سيتي: مدينة أمريكية تقع إلى الشرق من ميتشيجان غرب رأس «ساغينو».

(25) قديسة فرنسية (1412 - 1431) عذراء اوليانز.

(26) ابنة ريتشارد ليجالين. ممثلة انجليزية في امريكا.

(27) جورج كليمانسو: (النمر) سياسي فرنسي.

(28) شاعرة أمريكية.

(29) شاعر أمريكي.

(30) اسم مجلة، ومعنى الاسم (المنبر) أو (المنتدى).

(31) اسم لمجلة أو جريدة. ومعنى الاسم (الناصح).

(32) الأديب.

(33) اسم مجلة أدبية.

(34) اسم مجلة: والاسم يعني «مجلة القرن».

(35) فان دورين: «كارك كلينوت» (1885 - 1950) «مارك» (1894 - 1972) كاتبان أمريكيان ومحرران.

3) جوتنبرغ: جوهان. ألماني. مبتكر الطباعة الحديثة (1400 (؟) - 1468 (؟)).

(37) كاكستون: وليام. أول طابع انجليزي (1422 (؟) - 1491).

(38) كاسلون: وليام. انجليزي. أول سابك حروف طباعية (1692 - 1766).

(39) المنضِّدة السطرية: اللاينوتايب. آلة تنضيد الحروف الطباعة بالرصاص.

(40) فورد مادوكس فورد: كاتب انجليزي أصلاً (1873 - 1939).

(41) سنكلير لويس: روائي امريكي (1885 - 1951).

الفصل الثالث

الرجال في الحرب وموت المجتمع

«ويمكن كذلك الإشارة إلى أن التكلف لا ينطوي بداهة على نفي مطلق للصفات المتأثرة به. ولذلك فإن التكلف حين ينجم من النفاق يقترب من الخداع، إلا أنه حين ينجم من العبث فإنه يشكل جزءاً من التباهي. وعلى سبيل المثال فتكلف التحرر (الليبرالية) عند رجل مغرور يختلف بوضوح عن التكلف ذاته عند الرجل الجشع، لأنه بالرغم من ان الرجل المغرور ليس هو ما يبدو عليه، أو ليس لديه الفضيلة التي يتكلفها لدرجة تدعو إلى الاعتقاد بأنه يملكها، إلا أن الأمر عنده يكون اقل إقلاقاً مما عند الرجل الجشع الذي هو عكس ما يبدو تماماً»

هنري فيلدنغ

- 1 -

خرج «يوغي جونسون» من مدخل العمال في مصنع المضخات ونزل الشارع. في الجو رائحة الربيع. والثلج كان يذوب والمجاري

تجري بمائه. سار «يوغي جونسون» في وسط الشارع فوق الثلج الذي لم يذب بعد. انعطف يساراً وعبر الجسر فوق «بير ريفر»[1]. لقد ذاب الثلج في النهر. وراقب التيار البنيّ المدوِّم. وفي الأسفل، إلى جانب المجرى، انبثقت براعم شجيرات الصفصاف الخضراء.

إنها ريح «تشينوك» حقيقية، فكّر «يوغي جونسون». المراقب كان على حق إذ أخلى سبيل العمال. فليس من الأمان في شيء أن يستبقيهم في يوم كهذا يمكن أن يحدث فيه أي شيء. صاحب المصنع يعرف بعض الأشياء. حين تهب ريح «التشينوك» ما عليك إلا إطلاق العمال خارج المصنع. وعندها، إذا أصيب أي منهم فالمسؤولية ليست عليه. لا يطاله «قانون مسؤولية المستخدمين». كبار صانعي المضخات هؤلاء يعرفون بعض الأشياء. إنهم جدّ أذكياء.

شعر «يوغي» بالقلق. شيء ما يدور في رأسه. إنه الربيع، لا شك في ذلك الآن. لكنه لا يرغب في امرأة. لقد أقلقه ذلك كثيراً في الآونة الأخيرة. لا مجال للنقاش في ذلك، فهو لا يرغب في امرأة، ولا يستطيع تفسير ذلك لنفسه. لقد ذهب إلى المكتبة العامة في الليلة الماضية وسأل عن كتاب. نظر إلى موظفة المكتبة ولم يشعر برغبة فيها. لم تكن تعني له شيئاً، وفي المطعم، حيث يمتلك تذكرة لتناول الطعام، نظر بجفاء إلى النادلة التي أحضرت طعامه. لم يشعر برغبة فيها أيضاً، ومر بعدد من الفتيات في طريقهن من المدرسة الثانوية إلى البيت وتفحصهن، ولم يرغب في أي واحدة منهن. لا

شك أن هنالك خطأ ما. ترى هل تحطم؟ هل هي النهاية؟

حسناً، فكر يوغي، ربما راحت النساء رغم أنني آمل أن لا، لكنني ما زلت أحتفظ بحبي للخيول. كان يصعد التلة المنحدرة من «بير ريفر» إلى طريق «شارليفوا». لم تكن الطريق شديدة الانحدار لكن «يوغي» برجليه المثقلتين بالربيع أحس بها شديدة الانحدار. أمامه كان مخزن حبوب وأعلاف ومجموعة من الخيول مربوطة أمامه. صعد يوغي إلى الخيول. أراد أن يتحسسها ليؤكد لنفسه أن شيئاً ما زال باقياً لديه. وعندما اقترب نظرت إليه أقرب الخيول. دفع «يوغي» يده في جيبه بحثاً عن قالب من السكر. لم يجد. دفع الحصان أذنيه خلفاً وكشرّ عن أسنانه. والحصان الآخر أشاح برأسه. أهذا هو ما جناه من حبه للخيول؟ لا بأس، ربما الخيول ليست على ما يرام، ربما هي مصابة بالرُعام[2] أو بورم عرقوبي. وربما علق شيء ما بقلب حافرها الحساس. وقد تكون خيول عاشقة.

ارتقى يوغي التلة وانعطف يساراً إلى طريق «شارليفوا». مرّ بآخر بيوت ضواحي مدينة «بيتوسكي»، وبلغ الطريق الريفي المكشوف، عن يمينه حقل يمتد حتى خليج «ليتل ترافيرس بي[3]». زرقة الخليج تنفتح مندمجة في بحيرة «ميتشيجان» الكبيرة. وعبر الخليج تبدو تلال الصنوبر خلف «هاربر سبرنجز»[4]. ووراءها، حيث لا تستطيع أن تراها، تقع قرية «كروس فيليج» التي يعيش فيها الهنود. وأبعد من ذلك مضائق «ماكيناك» و «سانت ايناس» حيث حدث شيء غريب وجميل مع «اوسكار جاردنر» الذي يعمل إلى جانب يوغي

في مصنع المضخات. وأبعد من ذلك «السّو»[5] الكندية والأمريكية. هناك يذهب أكثر الناس في بيتوسكي حزناً ليشربوا البيرة ويحسّوا بالسعادة. وبعيداً بعيداً في الاتجاه الآخر عند قدمي البحيرة تقع «شيكاغو» التي ابتدأ «سكريس أونيل» سيره إليها في تلك الليلة الزاخرة عندما انتهى زواجه الأول. قرب شيكاغو توجد «غاري» (انديانا)[6] حيث مصانع الفولاذ الضخمة. وقربها «هاموند» (انديانا). وقريباً منها «بوث تاركنجتون»[7]. كان ذا إيقاع خاطىء هذا الرجل. وأبعد من ذلك، نزولاً، تأتي «سينسيناتي» (أوهويو). ووراءها «فيكسبيرغ» (مسيسيبي). وبعدها «واكو» (تكساس). آه! ذلك مسح شامل لأمريكتنا هذه.

انحرف «يوغي» عن الطريق وجلس على كومة من الأخشاب حيث يستطيع أن يطل على البحيرة. لقد انتهت الحرب على كل حال وهو ما زال حياً.

هنالك شخص في كتاب الزميل «أندرسون»[8] الذي أعطته إياه قيّمة المكتبة الليلة الماضية. لماذا لم يُرِد قيمة المكتبة؟ أيمكن أن يكون ذلك لاعتقاده بأن لها أسناناً اصطناعيةً؟ أيمكن أن يكون ذلك بسبب آخر؟ هل يمكن أن يخبرها طفل صغير بذلك؟ لم يكن يعرف. وماذا تعني له قيمة المكتبة على أي حال؟.

هذا الشخص في كتاب أندرسون، كان هو الآخر جندياً. قال أندرسون إنه قضى سنتين في الجبهة، ماذا كان اسمه؟ «فردْ» كذا.

«فردْ» هذا كانت تتراقص في رأسه أفكار ـ رعب. وفي ليلة أثناء القتال خرج في عرض عسكري ـ كلا، كانت دورية ـ في المنطقة الحرام، ورأى رجلاً يتعثر في الظلام فأطلق النار عليه. سقط الرجل على وجهه ميتاً. وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي قتل فيها «فرد» عن وعي رجلاً. أنت لا تقتل كثيراً في الحرب، يقول الكتاب. وحق الجحيم لا، فكر يوغي، إذا قضيت سنتين مع المشاة في الجبهة. إنهم يموتون فقط. يموتون فعلاً، فكر «يوغي». ويقول «أندرسون» إن ذلك الفعل كان مجرد هستيريا من جانب «فرد». كان يمكنه، هو والرجال الآخرون أن يجبروا الرجل على الاستسلام. لقد أصابهم الهذيان جميعاً. وبعد ذلك هربوا معاً. إلى أين هربوا بحق الجحيم؟ تساءل «يوغي جونسون»، إلى باريس؟.

بعد ذلك، ظل قتل هذا الرجل يعاود «فرد». وصار يبدو عذباً وواقعياً. هكذا يفكر الجنود، قال «أندرسون». كانت جحيماً. «فرد» هذا كان يفترض أنه قضى سنتين في فصيل مشاة في الجبهة.

كان اثنان من الهنود يمران في طريقهما ويتكلمان بصوت ناخرٍ مع نفسيهما ومع بعضهما. ناداهما «يوغي» فتقدما إليه.

«هل مع الزعيم الكبير الأبيض مضغة تبغ؟» سأل الهندي الأول.

«الزعيم الأبيض يحمل مشروباً؟» سأل الهندي الآخر.

قدم «يوغي» لهما علبته «بيرلس»[9] وزجاجة الجيب.

«الزعيم الأبيض لديه مشروب عظيم» قال الهنديان بصوت ناخر.

«اسمعا» قال يوغي جونسون «سأقدم لكما بعض الملاحظات عن الحرب وهو موضوع يؤثر فيّ بشدة». جلس الهنديان على الأخشاب وأشار أحدهما إلى السماء وقال «هناك في الأعلى «مانيتو»(10) المقتدر».

غمز الهندي الآخر باتجاه «يوغي» وقال ناخراً «الزعيم الأبيض لا يؤمن بكل شيء لعين يسمعه».

«اسمعا» قال يوغي جونسون. وحدثهما عن الحرب. ولم تكن الحرب ما هي عليه بالنسبة ليوغي، هذا ما قاله للهنديان. الحرب كانت عنده مثل لعبة كرة القدم. كرة القدم الأمريكية التي يلعبونها في الكليّات. كارلايل انديان سكول. اومأ الهنديان برأسيهما. لقد كانا في كارلايل.

كان «يوغي» يلعب في مركز الوسط في لعبة كرة القدم، والحرب كانت نفس الشيء إلى حد كبير، ممجوجة بقوة. حين تلعب كرة القدم، وتكون الكرة معك، تنحني وتباعد ما بين قدميك والكرة معروضة أمامك على الأرض.

تصبغي بانتباه للإشارة، وتحلّ شيفرتها وتُجري التمريرة الملائمة. عليك أن تفكر فيها طوال الوقت. وما دامت الكرة بين يديك فاللاعب الذي يقابلك يظل واقفاً في مواجهتك. وما أن تمرر الكرة

حتى يدفع يديه دفعة ساحقة في وجهك ويقبض عليك باليد الأخرى تحت ذقنك أو تحت إبطك محاولاً جرّك إلى الأمام أو دفعك إلى الخلف ليحدث ثغرة ينفذ من خلالها ويقطع اللعب. ويفترض أن تندفع بقوة إلى الأمام وتصدمه بجسدك بعنف فتخرجه من اللعبة وتسقطا على الأرض معاً. وهو لديه حرية التصرف كاملة. هذه اللعبة ليست ما يمكن أن تسمّيه لهواً. فما دامت الكرة معك فلديه حرية التصرف كاملة. والعزاء الوحيد هو أنك تستطيع دفشه حين تكون الكرة معه. بذلك تهدأ الخواطر وقد يسود التسامح. كرة القدم، مثل الحرب، ممجوجة. فإذا اكتسبت حدّاً من الصلابة تصبح مثيرة ومحمسة. وصعوبتها الأساسية تكمن في تذكر الإشارات. كان يوغي، يفكر في الحرب لا في الجيش. ما كان يعنيه هو القتال. وأما الجيش فهو شيء آخر. يمكن أن تحتمله أو تطرح النمر أرضاً وتدعه يسحقك. الجيش شيء سخيف لكن الحرب شيء آخر.

لم تعاود «يوغي» أشباح الرجال الذين قتلهم. يعرف أنه قتل خمسة رجال. ومن المحتمل أن يكون قد قتل أكثر من ذلك. لكنه لا يؤمن أن من تقتله يستحوذ عليك. ليس إذا أمضيت سنتين في الجبهة. أكثر الرجال الذين عرفهم كانوا مهتاجين كالجحيم بعد أن قتلوا لأول مرة. والمشكلة كانت في منعهم من قتل المزيد. كان من الصعب إرسال الأسرى إلى المؤخرة للتثّبت من هوياتهم. ترسل رجلاً مع أسيرين أو رجلين مع أربعة أسرى، فماذا كان يحدث؟

كان الرجال يعودون ويقولون إن الأسرى قد قتلوا خلال الحاجز الناري. ينخسون الأسير في قفاه بالسنكة، وحين يقفز الأسير يقولون له: «تريد أن تهرب يا ابن العاهرة» ويطلقون بنادقهم في مؤخرة رأسه. يريدون أن يتأكدوا من أنهم مارسوا القتل. كما أنهم لا يريدون الرجوع خلال حاجز نيران ملعون. لا، يا سيدي. لقد تعلموا سلوكاً كهذا من الاستراليين. وعلى كل حال، ما هم هؤلاء الألمان؟ حفنة من «الهون»[1] الملاعين. كانت «هون» تلفظ وقتها بسخرية. بتلك الواقعية والعذوبة. ليس إذا قضيت هناك سنتين. في النهاية يهدأون. يأسفون للمبالغات ويروحون في تكديس الفعال الحميدة تكفيراً عن قتلهم بعضهم بعضاً. لكن هذه المرحلة هي الرابعة خلال الجندية، مرحلة الاستكانة.

في الحرب، مع جندي جيد، تسير الأمور هكذا: أولاً، تكون شجاعاً لأنك تظن أن شيئاً لا يمكن أن يصيبك، لأنك، أنت نفسك، شيء متميّز، وتكون واثقاً أنك لن تموت. بعد ذلك تواجه شيئاً مختلفاً فتشعر بخوف حقيقي. لكنك كجندي جيد تتصرف تماماً كما مضى. وبعد أن تصاب بجروح ولا تموت، ومع رجال جدد يفدون ويمرّون بنفس تجربتك السابقة، تصبح أكثر صلابة وتغدو جندياً متحجر الفؤاد. بعد ذلك، يأتي الانهيار الثاني الاسوأ كثيراً من الأول، فتشرع في عمل الخير وتصير كالشاب «سير فيليب سيدني[12]» وتدّخر كنوزاً للآخرة. بالطبع، تظل طوال الوقت تتصرف كالسابق، كأنها لعبة كرة القدم.

ما من أحد له الحق في أن يكتب عنها[13] مالم يعرف شيئاً عنها ولو عن طريق السماع، فللأدب تأثير كبير على عقول الناس. مثل هذه الكاتبة الأمريكية «ويلا كاثر»[14] التي كتبت عن الحرب كتاباً أخذت الفصل الأخير منه من الحدث في كتاب «مولد أمة». وقد كتب لها كثير من رجال العسكرية السابقين من كل أنحاء أمريكا معبّرين عن مدى إعجابهم بالكتاب.

كان أحد الهنديين نائماً. بينما هو يمضغ التبغ أطبق فمه ونام متكئاً على كتف الهندي الآخر. أشار الهندي المستيقظ إلى الهندي النائم وهزّ رأسه.

«كيف وجدت الحديث؟» سأل يوغي الهندي المستيقظ. «الزعيم الأبيض لديه كثير من الأفكار الصائبة» قال الهندي «الزعيم الأبيض مثقف كجهنّم».

«شكراً» قال يوغي وقد بدا عليه التأثر. هنا، بين السكان الأصليين البسطاء الأمريكيين الحقيقيين، وجد الصلة الحميمة الحقيقية. نظر الهندي إليه وهو ممسك بحرص بالهندي النائم كي لا تسقط رأسه إلى الوراء على الأخشاب المغطاة بالثلج. «هل كان الزعيم الأبيض في الحرب؟» سأل الهندي.

«نزلت إلى البر الفرنسي في عام 1917» بدأ يوغي جوابه.

«اعتقدت أن الزعيم الأبيض كان في الحرب من طريقة كلامه» قال الهندي. «هو» ورفع رأس رفيقه النائم فسطعت آخر أشعة

الشمس الغاربة على وجهه «هو حصل على (ف. ك)»[15]. وأنا حصلت على (و. خ. م)[16]. و(س. ح)[17] مع شريطة. كنت رائداً، في فرقة مشاة البحرية الرابعة».

«أنا سعيد بلقائك» قال يوغي. وأحس إحساساً غريباً بالإهانة. بدأت العتمة ولم يتبق إلا خط صغير من الشمس الغاربة حيث تلتقي السماء بالماء بعيداً في بحيرة ميتشجان. راقب «يوغي» خط الغروب الضيق وهو يزداد احمراراً، يستدق فيصير خطاً رفيعاً ويتلاشى. لقد غربت الشمس وراء البحيرة. نهض «يوغي» عن كومة الأخشاب ونهض الهندي. أيقظ صاحبه الذي كان نائماً فاستيقظ ونظر إلى «يوغي جونسون».

«الزعيم الأبيض يأتي أيضاً» قال الهندي الذي كان نائماً.

«سأدخل المدينة معكما» أجاب يوغي. من هما هذان الهنديان؟ وماذا يعنيان له؟

مع غروب الشمس تصلبت الطريق الموحلة. لقد عادت إلى التجمد. ربما لم يكن الربيع آتياً، وربما لم يكن يهمه أنه لم يرغب في امرأة. لكن الآن، وبما أن الربيع ليس آتياً، فهناك سؤال حول ذلك. سيدخل المدينة مع الهنديين ويبحث عن امرأة جميلة ويحاول أن يريدها. نزل الطريق التي أصبحت متجمدة. وسار الهنديان إلى جانبه. وكانوا جميعاً في اتجاه واحد.

نزل الرجال الثلاثة الطريق المتجمدة ودخلوا مدينة «بيتوسكي» في الليل. ساروا صامتين على الطريق المتجمدة وأحذيتهم تكسّر قشرة الجليد التي تشكلت أخيراً. وبين حين وآخر كان «يوغي» يدوس طبقة رقيقة من الجليد فوق بريكة ماء. أما الهنديان فكانا يتجنبان هذه البريكات.

نزلوا التلة ومرّوا بمخزن الأعلاف، ثم عبروا الجسر فوق نهر «بير ريفر» وأحذيتهم تقرع ألواح الجسر المتجمدة قرعاً أجوفاً. صعدوا التلة مروراً ببيت الدكتور «رامري» و«حانة الشاي» ثم وصعداً إلى مكتب المراهنات، وأمام المكتب توقف الهنديان.

«الزعيم الأبيض يلعب البوله؟»، سأل الهندي الضخم. «لا» أجاب يوغي جونسون «فذراعي اليمين شلّت في الحرب.» «حظ الزعيم الأبيض سيء» قال الهندي الضئيل «نلعب مرة واحدة بوله كِلي»»[18].

«لقد أصيب في ذراعيه ورجليه في يبرس، أسرَّ الهندي الضخم ليوغي مجانبةً «هو حساس جداً».

«حسناً» قال يوغي جونسون «سألعب مرة واحدة».

ودخلوا إلى غرفة البوله الدافئة المليئة بالدخان. أخذوا طاولة وتناولوا عصّي البلياردو عن الجدار. وعندما اقترب الهندي الضئيل

ليتناول عصاه لاحظ يوغي ذراعيه الاصطناعيتين. كانتا من جلد بنّي ومشنكلتان عند الكوعين. وتحت الأضواء الكهربائية الساطعة لعبوا رهانهم على القماش الأخضر الناعم. وبعد ساعة ونصف وجد «يوغي» نفسه مديناً بأربعة دولارات وثلاثين سنتاً للهندي الضئيل.

«تلعب ضربات ممتازة» أشار إلى الهندي الضئيل.

«لا ألعب جيداً منذ الحرب» أجاب الضئيل.

«هل يحب الزعيم الأبيض أن يشرب شيئاً؟» سأل الهندي الضخم.

«من أين تحصل على المشروب؟» سأل يوغي «أضطر أنا إلى الذهاب إلى شيبويغان، لأحصل عليه».

«الزعيم الأبيض يأتي مع الأخوة الحمر» قال الهندي الضخم. تركوا الطاولة. وضعوا العصي في أماكنها على الجدار ودفعوا الحساب على المشرب وخرجوا في الليل.

على طول الشوارع المعتمة كان الرجال يتسللون إلى بيوتهم. الصقيع قد جمّد كل شيء. ريح «التشينوك» لم تكن حقيقية إذن. والربيع لم يحل بعد. والرجال الذين ابتدأو طقوسهم أوقفتهم الريح المثلجة التي كشفت أن «التشينوك» كانت زائفة. ذلك المراقب فكر يوغي، سيتلقى توبيخاً قاسياً. قد يكون ذلك تم بتدبير من قبل صُناع المضخات لطرد المراقب من وظيفته. أشياء كهذه تحدث.

وفي ظلمة الليل كان الرجال يتسللون إلى بيوتهم جماعات صغيرة.

سار الهنديان إلى جانبي يوغي. انعطفوا في شارعٍ فرعي وتوقف الثلاثة أمام مبنى كأنه اصطبل. لقد كان اصطبلاً. فتح الهنديان الباب وتبعهما يوغي إلى سلم يصعد إلى الدور العلوي. داخل الاصطبل كان معتماً لكن أحد الهنديين أشعل عود ثقاب ليرى يوغي السلم. صعد الهندي الضئيل أولاً والوصلات المعدنية تصر في ذراعيه الاصطناعيتين. وتبعه يوغي فالهندي الآخر وهو ينير الطريق أمام يوغي بأعواد الثقاب. دق الهندي الضئيل على السطح الذي يتوقف السلم تحته. وسمعت دقة مجيبة. وعاد الهندي الضئيل فدق مجيباً بثلاث دقات حادّة على السطح فوق رأسه. رُفع باب صغير فتسلقوا خلاله إلى الغرفة المضيئة.

في إحدى زوايا الغرفة كان هنالك مشرب ومشجب نحاسي أصفر ومباصق طويلة. وخلف المشرب مرآة، وتتوزع في الغرفة كراس مريحة، وطاولة بوله، ومجلات معلقة على قضبان مصطفه على الجدار. وعلى الجدار صورة «هنري وادسورث لونغفيلو»[19] مؤطّرة وموقّعة ومجللة بالعلم الامريكي.

كان بعض الهنود يجلسون على الكراسي المريحة يقرأون. ومجموعة صغيرة منهم جلست إلى المشرب.

«نادٍ صغير لطيف، ها؟» جاء هندي وصافح يوغي «أراك كل يوم تقريباً في مصنع المضخات».

كان هذا الهندي يعمل على إحدى الآلات في المصنع قرب يوغي. ثم جاء هندي آخر وصافح يوغي، وهو أيضاً يعمل في مصنع المضخات، وقال «حظ سيء بالنسبة للتشينوك».

«نعم» قال يوغي «مجرد إنذار كاذب».

«تعال وخذ شراباً» قال الهندي الأول.

«أنا مع رفقة» أجاب يوغي. من هم هؤلاء الهنود على أي حال.

«ادعُهُم أيضاً» قال الهندي الأول «يوجد دائماً مكان لشخص آخر». نظر يوغي حواليه: الهنديان اللذان بجانبه اختفيا. أين هما؟ بعد لحظات رآهما، كانا على طاولة المراهنة. نظر الطويل المهذب الذي كان يوغي يحادثه إليهما وأومأ برأسه لهما.

«إنهما من هنود الغابات» أوضح معتذراً «معظمنا هنا هنود مدينيون».

«نعم بالطبع» قال يوغي موافقاً.

الرجل الصغير له سجل ممتاز في الحرب» أوضح الهندي الطويل المهذب «والآخر كان رائداً على ما أعتقد».

قاد الهندي الطويل المهذب «يوغي» إلى المشرب. خلف المشرب وقف عامل المشرب. كان زنجياً.

«كيف تجد مزر «داغزهيد»[20]، سأل الهندي.

«جيد» قال يوغي.

«اثنان «داغزهيد، يابروس،» قال الهندي لعامل المشرب الذي انفجر بالضحك.

«علام تضحك يا بروس» سأل الهندي.

«عرفتها يا سيد ريد داغ، قال «عرفت أنك ستطلب داغز هيد دائماً».

«إنه شخص مرح» أوضح الهندي ليوغي «يجب أن أقدم نفسي. اسمي ريد داغ»[21].

«اسمي جونسون قال يوغي «يوغي جونسون».

«آ ـ اسمك مألوف تماماً لنا يا سيد جونسون» قال ريد داغ مبتسماً: «أريد أن تقابل أصدقائي. السيد سيتنغ بول[22]، السيد بويزوند بافالوا، والزعيم رانتنغ سكانك باكواردز».

«سيتنغ بول اسم اعرفه» علق يوغي وهو يصافحه.

«آه أنا لست واحداً من هذه الثيران الجالسة» قال السيد سيتنغ بول.

«الزعيم رانتنغ سكانك باكواردز، الجد الأعظم باع مرة جزيرة مانهاتان كلها، مقابل عدد قليل من عقود الأصداف». أوضح السيد ريد داغ، «شيء غاية في الأهمية» قال يوغي.

«كانت عقوداً باهظة الثمن لعائلتنا» قال الزعيم راننغ سكانك باكواردز، بابتسامة حزينة.

«الزعيم راننغ سكانك باكواردز، لديه بعض هذه العقود. هل تحب أن تراها؟» سأل «ريد داغ».

«نعم، أحب».

«إنها في الواقع لا تختلف عن أية عقود أصداف أخرى» أوضح راننغ سكانك باكواردز، بصيغة استنكار، وسحب عقداً من جيبه وناوله ليوغي جونسون. نظر يوغي إليه بفضول. يا للدور الذي لعبه عقد من الأصداف في أمريكتنا!

«هل تريد أن تحتفظ بصدفة أو اثنتين للذكرى؟ «سأل «راننغ سكانك باكواردز».

«لا أريد أن آخذ عقد أصدافك» ردّ يوغي باحتشام.

«ليس لها قيمة حقيقية» أوضح «راننغ سكانك باكواردز» وهو يستلّ واحدة أو اثنتين من الخيط.

«قيمتها في الواقع عاطفية لعائلة «راننغ سكانك باكواردز» قال ريد داغ.

«هذا لطف كبير منك يا سيد «سكانك باكواردز» قال يوغي.

«إنه لا شيء» قال سكانك باكواردز «كنت ستفعل الشيء ذاته لي بلا تردّد».

«هذا لطف منك».

وخلف المشرب كان بروس، عامل المشرب، ينحني أماماً ويراقب الأصداف تنتقل من يد ليد. أشرق وجهه الداكن، وفجأة، وبدون أي سبب انطلق في ضحك حادّ منفلت. الضحك الأسود للزنجي.

وجّه إليه «ريد داغ» نظرة صارمة «أقول يا بروس» قال بحدّة «مرحك يأتي في وقت غير مناسب بعض الشيء».

توقف «بروس» عن ضحكه ومسح وجهه بمنشفة ودارت عيناه باعتذار. «آه» لم أستطع كبحها يا سيد «ريد داغ». عندما رأيت السيد «سكانك باكهاوس» يمرر الأصداف لم أستطع الاحتمال أكثر. لماذا يبيع مدينة كبيرة مثل «نيويورك» مقابل هذه الأصداف؟ أصداف! ضبّ أصدافك![23].

«بروس غريب الأطوار» أوضح «ريد داغ»، لكنه عامل مشرب رائع وشخص طيب القلب».

صادق في هذا يا سيد «ريد داغ» وانحنى عامل المشرب «عندي قلب من الذهب الصافي».

«ومع ذلك فهو غريب الأطوار» قال «ريد داغ» معتذراً «لجنة النادي تلح عليّ لاستبداله بآخر لكنني أحبه كثيراً».

«أنا كويّس يا معلم» قال بروس «لكنني حين أرى شيئاً مضحكاً

أُضطر للضحك. أنت تعرف أنني لا أقصد الإيذاء يا معلم».

«حسن يا بروس» قال «ريد داغ»، موافقاً «أنت شخص أمين». نظر «يوغي جونسون» في أرجاء الغرفة. الهنود الآخرون ابتعدوا عن المشرب. و«سكانك باكواردز» كان يُري الأصداف لجماعة صغيرة من الهنود دخلوا لتوّهم بثياب العشاء. وعلى طاولة البلياردو ما زال الهنديان يلعبان. لقد خلعا معطفيهما ولمع الضوء المنبعث من مصباح فوق الطاولة على المفاصل المعدنية لذراعي هندي الغابات الضئيل. لقد ربح اللعب للمرة الحادية عشرة على التوالي.

«هل الرجل الضئيل كان سيصبح لاعب بلياردو ماهراً لو لم يصادف بعض سوء الحظ في الحرب؟» أشار «ريد داغ» «هل تحب أن تلقي نظرة على النادي؟» قال ذلك وتناول الفاتورة من بروس ودفع قيمتها. وتبعه يوغي إلى الغرفة المجاورة.

«غرفة لجنتنا» «قال«ريد داغ». على الجدران صور مؤطرة وموقعة للزعيم باندر،فرانسيس باركمان[24]، د. هـ. لورانس[25]، الزعيم مايرز، ستيوارد ادوارد وايت[26]، ماري أوستن[27]، جيم ثورب، الجنرال كاستر[28]، غلين وارنر، ميبل دودج ولوحة زيتية بالطول الكامل لهنري وادسورث لونغفيلو.

وراء غرفة اللجنة كانت غرفة الخزائن[29] وبها حمام غطس أو بركة سباحة. «إنها صغيرة بصورة مخجلة لنادي» قال (ريد داغ) «لكنها حفرة صغيرة نرتمي فيها في الأمسيات المملّة». وابتسم

«نسميها الويغوام[30]، كما تعرف. هذه فكرة متواضعة منّي».

إنه نادٍ لطيف جداً» قال يوغي بحماس.

«نرشحك للعضوية إن شئت» عرض ريد داغ «ما اسم قبيلتك؟».

« ماذا تعني؟»

«قبيلتك. ما أنت ـ ساك آند فوكس؟ جيبوي؟ كري، كما أتصور».

«جاء والداي من السويد» قال يوغي.

حدق «ريد داغ»، فيه وضاقت عيناه.

«أنت لا تخدعني؟»

«لا، كلاهما جاء من السويد أو النرويج» قال يوغي.

«كنت سأقسم أن فيك شيئاً من البيض» قال (ريد داغ) «حسن جداً أن اتضح ذلك في الوقت المناسب. وإلا كانت فضيحة كبيرة». وضع يده على رأسه وزمّ شفتيه. «اسمع» واستدار فجأة وقبض على يوغي من صدارته. وأحسّ يوغي بسبطانة سلاح أوتوماتيكي تدفع بقوة بطنه «ستسير بهدوء عبر غرفة النادي، تأخذ قبعتك ومعطفك وترحل عنا كأن شيئاً لم يحدث. ودّع بأدب كل من يتحدث إليك ولا تَعُدْ أبداً. افهم ذلك أيها السويدي».

«نعم» قال يوغي «ضُبّ مسدسك فهو لا يخيفني».

«افعل ما أقول» أمر (ريد داغ)، «وأما لاعبا (البوله) اللذان أتيا بك فسأسوّي الأمر معهما بعد قليل».

سار يوغي إلى الغرفة المضاءة. نظر إلى المشرب حيث كان بروس، عامل المشرب، يمعن النظر فيه. تناول قبعته ومعطفه، وتمنّى ليلة طيبة لسكانك باكواردز الذي سأل عن سبب رحيله المبكر. فتح بروس باب السقف وما أن نزل يوغي على السلم حتى انفجر الزنجي بالضحك. «لقد عرفت» قال وانفجر بالضحك. «كنت أعرف طول الوقت لا يستطيع سويدي أن يخدع بروس العجوز».

نظر «يوغي» وراءه ورأى وجه الزنجي الأسود الضاحك مؤطّراً في إطار مستطيل من الضوء الذي ظهر في باب السقف المفتوح. بلغ يوغي أرض الاسطبل ونظر حواليه. كان وحيداً. قش الاسطبل القديم تحت قدميه كان متجمداً صلباً. ترى أين كان؟

هل كان في نادٍ هندي؟ لماذا كل ذلك؟ هل هي النهاية؟

فوقه ظهر شق من الضوء في السقف ما لبث أن احتجب بهيكلين أسودين. سمع صوت ركلة ولكمة ثم سلسلة من الضربات ـ بعضها خافت وبعضها حادّ ـ وتدحرج هَيْكلان بشريان على السلم. وبعد ذلك سادت في الأعلى الظلمة وصوت شجي لضحكة زنجي.

نهض هنديا الغابات عن القش وعرجا نحو الباب. كان

أحدهما، الضئيل، يبكي. وتبعهما يوغي إلى الخارج في الليل البارد. كانت ليلة باردة. الليل صافٍ والنجوم واضحة.

«نادٍ سيء» قال الهندي الضخم «نادٍ سيء جدّاً».

كان الهندي الضئيل يبكي. وتحت الضوء رأى يوغي أنه قد فقد واحدة من ذراعيه الاصطناعيتين.

«لن ألعب البوله، ثانية» نشج الهندي الضئيل. هزّ ذراعهُ الوحيدة باتجاه شباك النادي الذي ظهر فيه شق من الضوء «ليذهب النادي إلى الجحيم - إنه نادٍ سيء».

«لا تهتما» قال يوغي «سأضمن لكما عملاً في مصنع المضخات».

«مصنع المضخات جحيم» قال الهندي الضخم «سنلتحق بجيش الخلاص».

«لا تبك» قال يوغي للهندي الضئيل و «سأشتري لك ذراعاً جديدة».

استمر الهندي الضئيل في البكاء. جلس على الطريق المثلجة وقال: «إذا كنت لا أستطيع أن ألعب البوله، فلن أهتم لأي شيء».

ومن فوقهم، من نافذة النادي، جاء الصوت الشبحي لضحكة الزنجي.

ملاحظة من الكاتب للقارئ

يسرّني أن أقول، إذا كان لقولي أي أهمية تاريخية، أنني كتبت الفصل السابق خلال ساعتين ومباشرة على الآلة الكاتبة، ثم رحت للغداء مع «جون دوس باسوس[31] الذي اعتبره كاتباً نشيطاً مؤثراً وصديقاً لا يجارى في مرحه. هذا ما يوصف في المقاطعات بـ (لوغ رولينغ)[32] تغدّينا: رول موب، سول مونيير، سيفي دي ليبفر آلاكوكوت، مارملاد دي بوم، وغسلنا زورنا، كما نقول عادة (مأذا أيها القارئ) زجاجة «مونتراشيه ـ 1919» مع سمك السول وزجاجة «هوسبيس دو بون ـ 1919» لكل واحد، مع أرنب مكمور. وقد شاركني السيد «دوس باسوس»، كما أتذكر، بزجاجة «شامبرتان» بعد «المارملاد دي بوم»[33] (آبل صوس بالانجليزية)[34]. وشربنا كأسين من البراندي. وبعد أن قررنا عدم الذهاب إلى «كافي دي دوم» والحديث عن الفن، ذهب كل منا إلى بيته، وكتبت الفصل التالي. أود أن يلاحظ القارىء بشكل خاص الطريقة التي تم بها جمع الخيوط المعقدة لحيوات الأشخاص المختلفة معاً في الكتاب ثم وضعها في ذلك المشهد البارز في مطعم الفاصولياء. لقد أطلق السيد «دوس بأسوس» صيحة إعجاب «هيمنجوي: لقد كتبت عملاً فريداً» عندما قرأت له ذلك الفصل بصوتٍ عالٍ.

ملحق من الكاتب للقارىء

هنا، أيها القارىء، سأحاول أن أدخل إلى الرواية تلك الحركة والاندفاعة التي تثبت بالفعل أنها رواية عظيمة، وأعرف أيها القارىء أنك تأمل، تماماً كما آمل أنا، بأن أحقق هذه الحركة لأنه قد فكّر بما يعنيه ذلك لكلينا. السيد «إتش جي ويلز»[35] الذي كان في زيارة لنا (إننا نتقدم في صنعة الأدب، أليس كذلك أيها القارى؟) سألنا في اليوم التالي إذا كان قارؤنا، وهو أنت أيها القارىء - فكّر في ذلك «إتش جي ويلز» يتحدث عنك في بيتنا. على كل حال «إتش جي ويلز» سألنا إن كان القارىء لن يعتقد بأن الجزء الأكبر من هذه القصة هو مذكرات.

رجاءً أيها القارىء: أبعد هذه الفكرة عن رأسك. لقد عشنا في «بيتوسكي»، «ميتشيجان»، هذا صحيح. وطبيعي أن كثيراً من الأشخاص في القصة قد أتوا من الحياة كما عشناها وقتها. لكنهم أناس آخرون، ليس الكاتب. الكاتب يدخل القصة في هذه الملاحظات الصغيرة لاغير. صحيح أننا، قبل البدء بكتابة هذه القصة، قد أمضينا اثنتي عشرة سنة في دراسة اللهجات الهندية المختلفة في هذا (الشمال)، ولا تزال ترجمتنا لـ (العهد الجديد) إلى

اللغة (الأوجيبية) محفوظة في المتحف في «كروس كوليدج»، لكنك كنت ستفعل الشيء نفسه لو كنت مكاننا أيها القارىء. وأعتقد أنك ستوافقنا إذا فكرت بذلك.

والآن لنعد إلى القصة. وحين أقول إنك أيها القارىء لا تعرف مدى صعوبة كتابة هذا الفصل التالي، فإنني أقول ذلك بروح الصداقة الأكثر إخلاصاً. وفي الحقيقة ـ وأحاول أن أكون صريحاً في هذه الأمور ـ لن نحاول كتابة هذا الفصل قبل يوم الغد.

○ ○ ○

الهوامش:

(1) اسم نهر يقع شمالي كاليفورنيا. ومعنى الاسم هو (نهر الدب).

(2) الرُعام: مرض يصيب الخيول ومن أعراضه سيلان المخاط.

(3) خليج ليتل ترافيرس ومعنى الاسم (خليج الحاجز الصغير).

(4) معنى الاسم (ميناء سبرنجز).

(5) السّو: سوسينت ماري كانالز (3) قنوات للسفن، اثنتان في الولايات المتحدة وواحدة في كندا، على منحدر نهر ماري تصل البحيرات العظمى و«هارون».

(6) الاسم بين قوسين صغيرين هو اسم المدينة وبين قوسين كبيرين هو اسم الولاية التابعة لها.

(7) بوث تاركنجتون: روائي امريكي (1769 - 1946).

(8) اندرسون: شيروود، كاتب امريكي (1876 - 1941).

(9) بيرلس: نوع من السجائر. سبق شرح معنى الاسم.

(10) مانيتو: إله يسيطر على قوى الطبيعة عند الهنود الحمر.

(11) هون: اسم كان يطلق على الجنود الالمان، والهون هم من المغول الذين سيطروا على أواسط اوربا في القرن الخامس قبل الميلاد.

(12) سير فيليب سيدني: شاعر ورجل دولة وجندي انكليزي (1554 - 1586).

(13) عنها: المقصود الحرب.

(14) ويلا كاثر روائية امريكية (1873 - 1947).

(15) ف. ك: فيكتوريا كروس ووسام برونزي (صليب النصر).

(16) و.خ.م: وسام الخدمة المتميزة.

(17) س.ح: وسام (سيد الحفلات).

(18) البوله: لعبة نوع من البلياردو بقصد المراهنة. و«بوله كِلي» هي نوع من الرهان منسوب إلى شخص اسمه «كلي» وهو اسم ايرلندي.

(19) شاعر أمريكي (1807 - 1882).

(20) المزر: نوع من الجعة. داغز هيد: هي ماركة المشروب ويعني (رأس الكلب).

(21) ريد داغ: اسم الرجل الهندي وتعني (الكلب الأحمر).

(22) سيتنغ بول: اسم الهندي ومعناه (الثور الجالس) والاسمان الآخران نسبة للجاموس والظربان، والأخير حيوان يطلق رائحة كريهة.

(23) معظم ما يقوله عامل المشرب الزنجي بروس ليس بصياغات لغوية صحيحة. كما أنه ذكر اسم سكانك باكهاوس مع أنه سكانك باكواردز. وبالنسبة للصياغات اللغوية ينطبق ذلك على معظم ما يقوله الهنود أيضاً.

(24) مؤرخ أمريكي (1823 - 1893).

(25) ديفيد هربرت لورنس. روائي انجليزي (1885 - 1930).

(26) روائي أمريكي (1973 - 1946).

(27) روائية أمريكية (1868 - 1934).

(28) الجنرال كاستر: جورج أرمسترونغ كاستر جنرال أمريكي (1839 - 1876).

(29) الخزائن: خزائن الرياضيين لحفظ ملابسهم.

(30) الويغوام: كوخ هندي بيضوي الشكل. والمقصود بهذا التشبيه هو الغرفة، وليس البركة بالطبع.

(31) جون دوس باسوس: جون رودريغو دوس باسوس، كاتب أمريكي (1896 - 1970).

(32) لوغ رولينغ: تبادل المدائح.

(33) أسماء الأطعمة بالفرنسية.

(34) آيل صوص: صلصة فواكه.

(35) اتش جي ويلز: هربرت جورج ويلز. روائي ومؤرخ انجليزي (1866 - 1946).

الفصل الرابع

رحيل عرق عظيم ونشوء الأمريكيين وتشوههم

وقد يُوجَّه إليّ اعتراض بأنني أدخلتُ، وبعكس تعاليمي، الرّذائل ومن النوع الشائن جداً، في هذا الكتاب. وعلى هذا سأردّ: أولاً، يصعب أن تتقصّى نسقاً من الفعال الانسانية وتبقى نقياً منها. ثانياً، إن النقائص التي تَرِدُ هنا هي مجرد نتائج عرضية لبعض الضعف أو الهشاشة البشرية اكثر مما هي حالات عادية ثابتة تكمن في العقل. وثالثاً، إنها لم تُقدَّم بهدف تسخيفها وإنما لتكريس مقتها. ورابعاً، إنها لم تشكّل ابداً الشيء الاساسي في مسرح الحدث عند تقديمها، وأخيراً، إنها لا تسبب ابداً إساءة متعمّدة».

هنري فيلدنغ

- 1 -

«يوغي جونسون» ينزل الشارع الصامت وذراعه حول كتف الهندي الضئيل، والهندي الضخم يسير إلى جانبهما. الليل البارد. بيوت المدينة المغلقة. الهندي الضئيل الذي فقد ذراعه

الاصطناعية. الهندي الضخم الذي كان في الحرب أيضاً. «يوغي جونسون» الذي كان، هو الآخر، في الحرب. ثلاثتهم يسيرون، يسيرون، يسيرون. إلى أين كانوا يسيرون؟ أين يمكن أن يذهبوا؟ وماذا تبقىّ؟

فجأة، تحت ضوء مصباح يتأرجح على سلكه المتدليّ فوق زاوية من الشارع ملقياً ضوءه على الثلج تحته، وقف الهندي الضخم «السير لا ينتهي بنا إلى مكان» قال بصوت ناخر «المشي لا يفيد. فليتكلم الزعيم الأبيض. أين نذهب أيها الزعيم الأبيض؟».

لم يعرف «يوغي جونسون». كان واضحاً أن السير ليس هو الحلّ لمشكلتهم. فالسير حسن نحو هدف. جيش كاكسي[1].

حشود من الرجال يبحثون عن عمل يتدافعون باتجاه واشنطن. رجال يزحفون، فكر يوغي. يتقدمون ويتقدمون، فإلى أين سيصلون؟ لا إلى مكان. لا إلى مكان أبداً.

«ليتكلم الزعيم الأبيض» قال الهندي الضخم.

«لا أعرف» قال يوغي «لا أعرف أبداً». أهذا ما خاضوا الحرب من أجله؟ أمن أجل هذا كل ما حدث؟ يبدو كذلك. يوغي يقف تحت ضوء الشارع. يوغي يفكر ويتساءل. الهنديان في معطفيهما الماكينو[2]. أحد الهنديين بكمّ فارغ. جميعهم يتساءلون في صمت.

«ألا يتكلم الزعيم الأبيض؟» سأل الهندي الضخم.

«لا». وماذا كان باستطاعة يوغي أن يقول؟ هل كان هنالك ما يقال؟

«هل يتكلم الأخ الهندي؟» سأل الهندي.

«تكلّم» قال يوغي ونظر إلى الثلج تحته «لا أحد الآن أفضل من الآخر».

«هل سبق أن ذهب الزعيم الأبيض إلى مطعم براون للفاصولياء؟» سأل الهندي الضخم وهو ينظر إلى وجه «يوغي» تحت ضوء المصباح القوسي[3].

«لا» وأحسّ يوغي بإرهاق. أهذه هي النهاية؟ مطعم فاصولياء هو مكان كأي مكان آخر. ولكن مطعم فاصولياء! ولم لا؟ هذان الهنديان يعرفان المدينة. وهما جنيديان سابقان. ولكليهما سجلات حربية ممتازة. هو نفسه عرف ذلك. لكن مطعم فاصولياء!.

«ليأتِ الزعيم الأبيض مع الأخوة الحمر»، ووضع الهندي ذراعه تحت ذراع يوغي. وأبدى الهندي الضئيل موافقته. وقال يوغي بصوت خافت «هيا إلى مطعم الفاصولياء».

كان رجلاً أبيض لكنه كان يعرف حدوده. كما أن العرّق الأبيض قد لا يكون الأسمى دائماً. هذه ثورة المسلمين. هيجان في

الشرق. اضطرابات في الغرب. والأمور في الجنوب تبدو قاتمة. وهذه الأحوال في الشمال[4]، إلى أين تقوده؟ إلى أين يؤدي كل ذلك؟ هل يساعده في أن يريد امرأة؟ هل سيأتي الربيع في وقت ما؟ هل هناك ما يستحق ذلك؟ تساءل يوغي.

ثلاثتهم يسيرون على طول شوارع «بيتوسكي» المتجمدة. هم الآن يسيرون إلى مكان ما. آن روت[5]. «ويسمانز»[6] كتب ذلك. لابد أن القراءة باللغة الفرنسية شيء ممتع. سيجرب ذلك في وقت ما. في باريس أُطلق اسم «ويسمانز» على أحد الشوارع قريباً من الزاوية التي عاشت فيها «جيرترود شتاين». يالها من امرأة، إلى أين يقودها التجريب في الكلمات؟ وما الهدف من وراء ذلك؟ هذا كله في باريس. باريس. ما أبعد المسافة إلى باريس. باريس صباحاً. باريس مساءً. باريس في الليل. باريس في الصباح ثانية. وباريس، ربما، ظهراً. ولم لا؟ «يوغي جونسون» يغذ الخطى وفكره لا يهدأ.

ثلاثتهم يسيرون معاً. تتشابك أذرع اليدين، من بينهم، يمتلكون أذرعاً. رجال حمر ورجال بيض يسيرون معاً. لقد جمعهم شيء ما. أهي الحرب؟ أهو المصير؟ أهو حدث ما؟ أم مجرد مصادفة؟ أسئلة تصادمت في رأس يوغي جونسون. لقد تعبت رأسه، فهو في الأيام الأخيرة، كان يفكر كثيراً، والثلاثة يغذون الخطى. وفجأة توقفوا.

نظر الهندي الصغير إلى اللافتة وهي تسطع خارج نوافذ مطعم الفاصولياء التي غلّفها الصقيع. الأفضل بالتجربة.

«إنها تكسبهم خبرة عظيمة» قال الهندي الضئيل بصوت ناخر. «مطعم فاصولياء الرجل الأبيض فيه شرائح لذيذة» قال الهندي الضخم بصوت ناخر «خذها من الأخ الأحمر». تردد الهنديان قليلاً خارج الباب. ثم توجه الهندي الضخم إلى يوغي «هل مع الزعيم الأبيض دولارات؟».

«نعم، معي نقود» أجاب يوغي. كان مستعداً ليواصل. فلا مجال الآن للتراجع.

«الطعام على حسابي يا شباب».

«الزعيم الأبيض بطبيعته رجل نبيل» قال الهندي الطويل الناخر. «الزعيم الأبيض ماس أصلي» وافق الهندي الضئيل.

«كنت ستفعل الشي نفسه لي» قال يوغي محاولاً التقليل من أهمية ما فعل، لكن ذلك قد يكون صحيحاً. كانت فرصة اغتنمها. وقد اغتنم فرصة كهذه مرة في باريس. و«ستيف برودى» اغتنم فرصة. أو هكذا قالوا. تغتنم الفرص في كل أنحاء العالم كل يوم. في الصين، يغتنم الصينيون الفرص. وفي افريقيا الافارقة. والمصريون في مصر. والبولنديون في بولندا. والروس في روسيا. والايرلنديون في إيرلندة. وفي أرمينيا.....

«الأرمن لا يغتنمون الفرص» قال الهندي الطويل بهدوء. لقد

نطق بشكوك يوغي الصامتة. إنهم بعيدو نظر هؤلاء الرجال الحمر.

«حتى ولا في لعبة (الراغ)؟».

«الأخ الأحمر يعتقد أن لا «قال الهندي» بنغمة حملت «يوغي» على الاقتناع. من هم هؤلاء الهنود؟ لابد من وجود شيء وراء ذلك. ودخلوا مطعم الفاصولياء.

ملاحظة من الكاتب للقارىء

عند هذه النقطة من القصة أيها القارىء، جاء السيد «ف. سكوت فيتز جيرالد[7]» إلى بيتنا ظهر يوم من الأيام. وبعد أن جلس وقتاً غير قصير انتقل فجأة قرب الموقد. ولم يُرد (أم هي «لم يقدر» أيها القارىء) أن ينهض ويترك النار تلتهم شيئاً آخر[8] لتدفىء الغرفة. أعرفُ أيها القارىء أن أشياء كهذه لا تظهر غالباً في قصة. لكنها تحدث على كل حال. وفكّر بما يعنيه ذلك لشخص مثلك ومثلي في مهنة الأدب. فإذا كنت تعتقد أن هذا الجزء من القصة غير جيّد فتذكر أيها القارىء أن أشياء كهذه تحدث كل يوم في كل أنحاء العالم. وأجدني مضطراً، إلى أن أصف أنني أكنّ أعظم احترام للسيد فيتزجيدالد. وإذا هاجمه أحد فسأكون أول من يهب للدفاع عنه! وهذا يشملك أيضاً، أيها القارىء، رغم أنني لا أحب أن أفكر هكذا بفجاجة وأحطم صداقة يحتاج أمثالنا إلى إقامتها.

ملحق من الكاتب للقارئ

حين أعدت قراءة هذ الفصل لم يظهر لي أنه رديء. قد يعجبك. آمل ذلك. وإذا أعجبك، أيها القارئ، وبقية الكتاب أيضاً، فهل ستتحدث لأصدقائك عنه وتحاول إقناعهم بشراء نسخة منه كما فعلت أنت؟ إنني أحصل على عشرين سنتاً فقط عن كل كتاب يباع. ومع أن عشرين سنتاً ليست بالشيء الكثير هذه الأيام، إلا أنها ستجمع كثيراً إذا بيع من الكتاب مئتين أو ثلاثمائة ألف نسخة مثلاً. وهذا ممكن، إذا أحبّ كل واحد الكتاب كما أحبه أنا وتحبه أنت أيها القارئ. واسمع أيها القارئ، فحين قلت بأنه يسعدني أن أقرأ كل ما تكتبه أنت فإنما عنيت ما قلت. لم يكن ذلك مجرد كلام. أحضره وسنقرأه معاً. وإذا أردتَ أعيد كتابة بعض أجزائه لك. ولا أعني بذلك أي نوع من النقد. وإذا وجدت مالم يعجبك في هذا الكتاب فاكتب إلى «جوناثان كيب»، المكتب الرئيسي. وسيغيرونه لك، أو أغيره لك بنفسي إن أحببت. وتعرف، أيها القارئ، رأيي فيك. ولا أظنك غاضباً أو منزعجاً مما قلته عن «سكوت فيتز جيرالد»، هل أنت غاضب؟ آمل أن لا. والآن سأكتب الفصل التالي. لقد رحل السيد «فيتز جيرالد»، والسيد «دوس باسوس» ذهب إلى انجلترا، وأعتقد أنني أستطيع أن أعدك

بفصل سمين. سيكون جيداً بالقدر الذي أستطيعه على الأقل. وكلانا يعرف إلى أي حد يمكن أن يكون جيداً إذا قرأنا التعريفات به، أليس كذلك أيها القارىء؟

* * *

- 2 -

في مطعم الفاصولياء. كلهم في مطعم الفاصولياء، والبعض لا يرى الآخر. كل واحد مهتم بنفسه. الرجال الحمر منشغلون معاً. والرجال البيض منشغلون ببعضهم أو بالنساء البيضاوات. لا يوجد نساء حمر. ألم يعد هنالك نساء هنديات؟ ماذا حدث للنساء الهنديات؟ هل فقدنا نساءنا الهنديات في أمريكا؟ وبصمت، من الباب الذي فتحته، دخلت امرأة هندية. كانت عارية إلا من زوج من أبواط الموكاسين[6] وعلى ظهرها طفل هندي، وإلى جانبها كان يسير كلب ضخم.

«لا تنظري!» صاح البائع الجوّال في المرأة خلف المشرب.

«أَخرجْها من هنا!» صرخ صاحب المطعم الفاصولياء. دفع الزنجي الطباخ المرأة الهندية خارجاً. وسمعوا صوت أقدامها تهرس الثلج في الخارج وكلبها الضخم ينبح.

«يا إلهي! إلامَ كان سيؤدي ذلك!» ومسح سكريس أونيل جبينه بمنديل.

راقب الهنديان ما حدث بوجوه جامدة. وتجمّد يوغي جونسون في مكانه. غطت النادلات وجوههن بمناديل الطاولات أو بما وقعت أيديهن عليه. والسيدة سكريبس أونيل حجبت عينيها بمجلة «أميريكان ميركوري». أما سكريبس أونيل فقد شعر بضعف وارتعاش. لقد تحرك شيء ما في داخله، إحساس بدائي غامض حين دخلت المرأة الهندية إلى المكان.

«ترى من أين جاءت هذه المرأة الهندية؟» سأل البائع الجوال.

«إنها امرأتي» قال الهندي الضئيل.

«يا الله يا رجل! ألا تستطيع أن تكسوها؟» قال سكريبس أونيل بصوت خفيض فيه نبرة خوف.

«هي لا تحب الملابس» أوضح الهندي الضئيل «هي هندية غابات».

لم يكن «يوغي جونسون» مصغياً. لقد انكسر شيء ما داخله. شيء ما قد انهار حين دخلت الهندية المكان. تملكه إحساس جديد. إحساس اعتقد أنه فقده إلى الأبد. فقده تماماً. ضاع. زال زوالاً مستديماً. والآن، أدرك خطأ ذلك. هو الآن على أحسن حال. لقد اكتشف ذلك بالصدفة البحتة. ما هي الأفكار التي كانت ستفوته لو لم تدخل هذه المرأة الهندية إلى مطعم الفاصولياء؟ ما هذه الأفكار السوداء التي كانت تشغل رأسه؟ كان على حافة الانتحار. تدمير نفسه. قتل نفسه، هنا في مطعم الفاصولياء. أي

غلطة كان سيرتكب. هو الآن يعرف. أي تصرف أخرق كان سيفسد الحياة به. يقتل نفسه. ليأتِ الربيع الآن. ليأتِ. هو لن يأتي بالسرعة التي يريد. ليأتِ الربيع. فهو مستعد له.

«اسمعا» قال للهنديين «أريد أن أحكي لكما عن شيء حدث لي في باريس».

انحنى الهنديان إلى الأمام بإصغاء. «ليتكلم الزعيم الأبيض» قال الهندي الطويل.

«شيء اعتقدت أنه جميل حدث لي في باريس» بدأ يوغي حديثه.

«أنتم الهنود تعرفون باريس؟ حسناً. لقد اتضح فيما بعد أنه كان أقبح شيء حدث لي طوال عمري».

قال الهنديان بصوت ناخر أنهما يعرفان باريس.

«كان ذلك في أول يوم من إجازتي. كنت أسير في «شارع مالشارب» حين مرت بي سيارة. أخرجت امرأة جذابة رأسها من السيارة ونادت عليّ فذهبت إليها. أخذتني إلى بيت، بل قصر، في الطرف القصي من باريس ـ حيث حدث لي شيء رائع. بعد ذلك أخرجني أحدهم من باب غير الذي دخلته. وكانت المرأة الجميلة قد قالت لي إنها لن تراني، لن تقدر أن تراني، مرة أخرى. حاولت أن آخذ رقم القصر لكنه كان واحداً من مجموعة من القصور المتشابهة. ومنذ ذلك الوقت، وطوال إجازتي، كنت

أحاول أن أرى تلك السيدة الجميلة. خُيّل إلي مرة أنني رأيتها في المسرح. لم تكن هي. ومرة أخرى اعتقدت أنني لمحتها في سيارة عابرة فوثبت إلى سيارة أخرى وتبعتها. لكنني فقدت سيارتها. كنت يائساً. وأخيراً، في الليلة ما قبل الأخيرة من إجازتي كنت يائساً ومنقبضاً لدرجة أنني ذهبت مع أحد الأدّلاء الذين يعدونك بأن ترى معهم كل باريس. زرنا أماكن كثيرة. وسألت الدليل «أهذا كل ما عندك؟».

«هناك مكان ممتاز لكنه يكلف كثيراً» قال الدليل. واتفقنا على سعر بعد لأي وأخذني الدليل. كان قصراً قديماً تنظر فيه من خلال شق في الحائط. كان هناك أناس كثيرون ينظرون عبر شقوق في جدار القصر. هناك، يرى الناظر خلال هذه الشقوق الأزياء العسكرية لرجال من كل أقطار «المحور»، وعدداً كبيراً من «الأمريكيين الجنوبيين» بملابس السهرة. نظرت بنفسي خلال أحد الشقوق. ولفترة وجيزة لم يحدث شيء. ثم دخلت امرأة جميلة إلى الغرفة بصحبة ضابط انجليزي فتي. خلعت معطفها الفرو وقبعتها ورمتهما على كرسي. وراح الضابط يحل حزام «سام براون»[10]. عرفتها. كانت السيدة التي رافقتني يوم حدث لي ذلك الشيء الجميل». نظر يوغي جونسون إلى صحن الفاصولياء الفارغ. «ومنذ ذلك الوقت» قال «لم أرغب قطّ في امرأة. لا أستطيع أن أصف معاناتي. لكنني عانيت، يا شباب، عانيت. ووضعت اللوم على الحرب. وضعت اللوم على فرنسا. وألقيت اللوم هنا وهناك.

والآن شفيت. هاكم خمسة دولارات يا أولاد»، كانت عيناه تلمعان «اطلبوا مزيداً من الطعام. ارتحلوا إلى مكان ما. إنه أسعد يوم في حياتي».

نهض عن مقعده أمام المشرب وصافح يد واحد من الهنديين بحرارة، وأراح يده لدقيقة على كتف الهندي الآخر. فتح باب مطعم الفاصولياء وانطلق في الليل.

نظر الهنديان أحدهما في الآخر «الزعيم الأبيض صديق حميم» لاحظ الهندي الضخم.

«ترى» قال الهندي الضئيل. واستمرا في الأكل.

وعلى الطرف الآخر للمشرب في مطعم الفاصولياء كان زواج يقترب من نهايته.

كان «سكريبس أونيل» وزوجته يجلسان جنباً إلى جنب. السيدة سكريبس تعرف الآن أنها لا تستطيع الاحتفاظ به. لقد حاولت وفشلت. لقد خسرت. كانت تعرف أنها لعبة خاسرة. لا أمل في الاحتفاظ به الآن. راحت «ماندي» تتكلم ثانية. تتكلم وتتكلم. دائماً تتكلم. هذا السيل الطويل المسئم من الثرثرة الأدبية هو الذي كان يضع حدّاً لزواجها هي «ديانا». لا تستطيع الاحتفاظ به. كان يهرب ويبتعد. يبتعد عنها. «ديانا» تجلس هناك في بؤس وسكريبس يصغي لحديث «ماندي». ماندي تتكلم. تتكلم. تتكلم. البائع الجوال، وهو صديق قديم الآن، البائع الجوال جالس يقرأ جريدة

«أخبار ديترويت». لا تستطيع الاحتفاظ به. لا تستطيع الاحتفاظ به. لا تستطيع الاحتفاظ به.

نهض الهندي الصغير عن مقعده جانب المشرب ومشى إلى النافذة. زجاج النافذة كان مغطى بصقيع كثيف. نفخ الهندي الصغير على زجاجة النافذة ونظف البقعة بكم معطفه الماكينو الفارغة ونظر خارجاً في عمق الليل. ورآه الهندي الضخم يخرج فأنهى بسرعة وجبته وتناول نكاشة أسنان، وضعها بين أسنانه وتبع صديقه خارجاً في الليل.

- 3 -

«سكريبس» و«ماندي» و«ديانا» وحدهم الآن في مطعم الفاصولياء. البائع الجوّال، فقط، كان معهم. هو، الآن، صديق قديم. لكن أعصابه متوترة هذه الليلة. طوى جريدته فجأة وتوجه إلى الباب.

«أراكم جميعاً فيما بعد» قال، وخرج في الليل، وكأن هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن عمله، وقد عمله.

بقي الآن ثلاثة منهم في مطعم الفاصولياء، «سكريبس» و«ماندي» و«ديانا». هؤلاء الثلاثة فقط. كانت «ماندي» تتكلم. منحنية على المشرب وتتكلم. و«سكريبس» ثبّت عينيه على «ماندي» و«ديانا» ما عادت الآن تتظاهر بالاستماع. عرفت أن الأمر

انتهى. لقد انتهى كل شيء. لكنها ستبذل محاولة أخيرة. محاولة أخيرة شجاعة. لعلّها لا تزال قادرة على الاحتفاظ به. قد يكون ذلك كله مجرد حلم. ماسكتْ صوتها وتكلمت.

«سكريس يا عزيزي» قالت وارتجف صوتها قليلاً فهدّأته.

«ماذا في رأسك؟» سأل سكريس بفجاجة. آه، هاهو من جديد، هذا الحديث المقتضب المخيف.

«سكريس يا عزيزي، ألا تريد أن تأتي إلى البيت؟» وارتجف صوتها «يوجد عدد جديد من «ميركوري»». لقد تحوّلتْ من «الندن ميركوري» إلى «أميركان ميركوري» لمجرد أن تحظى برضاه. «لقد وصلت للتوّ. أودّ لو تأتي إلى البيت يا «سكريس»، توجد أشياء رائعة في هذا العدد من «ميركوري». تعال إلى البيت يا «سكريس». لم أسألك شيئاً من قبل. تعال إلى البيت يا سكريس! آه، ألن تأتي إلى البيت؟».

نظر سكريس إليها. فتسارع خفقان قلبها، ديانا. ربما سيأتي. قد تستطيع الاحتفاظ به. الاحتفاظ به. الاحتفاظ به.

«تعال يا عزيزي سكريس» قالت ديانا بنعومة «فيها افتتاحية رائعة بقلم (منكن) عن المعالجين بتقويم العمود الفقري.»

أشاح سكريس بوجهه.

«ألن تأتي يا سكريس» رجته ديانا.

«لا» قال سكريبس «لم أعد أعير (منكن) أي اهتمام».

أسقطت «ديانا» رأسها على صدرها «آه يا سكريبس» قالت «آه يا سكريبس». تلك كانت النهاية. لقد تلقّت، الآن، الجواب. لقد فقدته. فقدته. فقدته. حُسم الأمر. انتهى. وُضع له حدّ. وجلست تبكي بصمت. وعادت ماندي إلى الكلام.

فجأة انتصبت «ديانا». لديها طلب أخير. شيء واحد تطلبه منه. شيء واحد فقط. قد يرفض طلبها. قد لا يلبيه، لكنها ستطلبه.

«سكريبس» قالت.

«ما المشكلة؟» ونظر سكريبس إليها بانزعاج. لكنه، ربما، كان يشعر بالأسف لأجلها.

«هل آخذ الطائر يا سكريبس؟» انهار صوت «ديانا».

«بالتأكيد» قال سكريبس «ولم لا؟».

حملت «ديانا» قفص الطائر. كان الطائر غافياً. كان جاثماً على رجل واحدة كما في تلك الليلة التي التقيا فيها للمرة الأولى. ماذا كان يشبه؟ آه، نعم. مثل عقاب عجوز. عقاب عجوز من موطنها «ليك كانتري». واحتضنت القفص بقوة.

«شكراً لك يا سكريبس» قالت «شكراً لك على هذا الطائر» وانهار صوتها «عليّ الآن أن أذهب».

مضتْ بهدوء وصمت، وقد لفّت شالها حول جسدها

وأمسكت بالقفص والطائر غافٍ داخله، واحتضنت نسخة «ميركوري» إلى صدرها، وبلمحة إلى الوراء فتحت باب مطعم الفاصولياء وخرجت في الليل. حتى أن «سكريس» لم يشيّعها. كان منشغلاً بحديث «ماندي» فلقد عادت «ماندي» إلى الحديث.

«ذلك الطائر، لقد أخذته معها» سأل سكريس «تابعي قصتك».

«كنتَ تتساءل أي نوع من الطيور هو» تابعت ماندي.

«هذا صحيح» قال سكريس موافقاً.

«حسناً، هذا يذكرني بقصة عن «غوس»[11]، و«ماركيز بيوك» تابعت ماندي.

«احكيها يا ماندي، احكيها» قال سكريس يستحثها.

«يبدو أن أحد أصدقائي الكبار، فورد، لقد سمعتني أتحدث عنه من قبل، كان في قلعة الماركيز خلال الحرب. تقرر أن ينزل فصيله هناك. والماركيز، أحد أكبر الأغنياء إن لم يكن أغنى رجل في انجلترا، كان يقضي خدمته العسكرية في فصيل «فورد» كمجنّد. كان فورد يجلس في المكتبة ذات مساء. مكتبة رائعة بشكل غير عادي. جدرانها مصنوعة من لبناتٍ من الذهب مرصوفة على رقاقات فلّينية أو ما شابه ذلك. نسيت كيف كانت بالضبط؟»

«تابعي» قال سكريس يستحثها.

«على كل حال، كان في منتصف حائط المكتبة طائر «بشروش»[12] محنّطاً في قفص زجاجي».

«يفهمون في زخرفة البيوت هؤلاء الانجليز» قال سكريبس.

«كانت زوجتك انجليزية، أليس كذلك؟» سألت ماندي.

«من (ليك كانتري)» أجاب سكريبس «تابعي قصتك».

«حسناً» تابعت ماندي «كان فورد يجلس هناك في المكتبة ذات مساء بعد العشاء عندما دخل رئيس الخدم وقال «تحيات ماركيز بيوك. هل يستطيع أن يُري المكتبة لأصدقائه الذين تعشّى معهم؟ كانوا يسمحون له أن يتعشّى خارجاً وأحياناً يسمحون له بالنوم في القلعة. قال فورد «ممكن تماماً» ودخل الماركيز بزيّه العسكري يتبعه السيد (ادموند غوس) والأستاذ، ما هو اسمه، نسيته الآن، من جامعة أوكسفورد، وقف غوس أمام البشروش المحنط في قفصه الزجاجي وقال: «ماذا لدينا هنا يا بيوك؟».

«إنه بشروش يا سيد ادموند؟» أجاب الماركيز.

«ليست هذه فكرتي عن البشروش» علق غوس.

«لا يا غوس. هذه فكرة الله عن البشروش» قال الأستاذ لا أعرف ما اسمه. «أتمنى لو أتذكر اسمه».

«لا تزعجي نفسك» قال سكريبس. كانت عيناه ساطعتين وقد انحنى إلى الأمام وشيء ما يخفق داخله. شيء لا يستطيع ضبطه.

«أحبك يا ماندي» قال «أحبك. أنت امرأتي». كان ذلك الشيء يخفق عميقاً داخله بلا توقف.

«حسن» أجابت «ماندي» «كنت أعرف أنك رجلي منذ وقت طويل. هل تحب سماع قصة أخرى تحكي عن المرأة؟».

«تكلمي» قال سكريبس «يجب أن لاتتوقفي يا ماندي. أنتِ امرأتي الآن».

«بالتأكيد» وافقت ماندي «هذه القصة عن الأيام التي كان فيها «نات هامسون»[13] قاطع تذاكر ترام في شيكاغو.

«تابعي» قال سكريبس «أنت امرأتي الآن يا ماندي».

وأعاد التعبير في نفسه. امرأتي. امرأتي. أنت امرأتي. إنها امرأتي. إنها امرأتي[14]. امرأتي. لكنه، لسبب ما، لم يحس بالاكتفاء. لابد من وجود شيء آخر. امرأتي. الكلمات جوفاء بعض الشيء. وفي رأسه، رغم محاولته إبعادها، عادت الصورة الوحشية للمرأة الهندية وهي تدخل المكان صامتة. تلك المرأة الهندية. لم تكن ترتدي ملابس لأنها لا تحبها. قاسيةٌ ومتحديةٌ ليالي الشتاء. أي شيء قد لا يأتي الربيع به؟ كانت ماندي تتحدث. ماندي تتحدث في مطعم الفاصولياء. ماندي تحكي حكاياتها. صار الوقت متأخراً في مطعم الفاصولياء. ماندي تتحدث. إنها امرأته الآن. وهو رجلها. لكن، هل هو رجلها؟ في رأس سكريبس ذلك المنظر للمرأة الهندية. المرأة الهندية التي دخلت إلى مطعم الفاصولياء دون الإعلان عن

حضورها. المرأة الهندية التي قُذف بها خارجاً إلى الثلج. وماندي تتحدث. تحكي ذكريات أدبية وأحداثاً حقيقية صادقة. ويبدو أنهما صادقان. لكن سكريس تساءل: ترى هل يكفي ذلك؟ كانت امرأته. لكن سكريس تساءل: ترى إلى أي مدى؟ ماندي تتحدث في مطعم الفاصولياء، وسكريس يصغي. لكن فكره يسرح بعيداً. يسرح بعيداً. ترى أين كان يسرح؟ خارجاً في الليل. خارجاً في الليل.

- 4 -

كانت ليلاً في «بيتوسكي». وبعد منتصف الليل بكثير. في مطعم الفاصولياء ضوء مشتعل، والمدينة غافية تحت القمر الشمالي. وشمالاً، تبتعد خطوط (جي آر أند آي) للسكة الحديد، وتوغل. خطوط باردة تمتد شمالاً نحو «ماكينوسيتي» و«سانت إيناس». خطوط تحول برودتها دون السير عليها في هذا الوقت من الليل.

إلى الشمال من المدينة الشمالية المتجمدة يسير اثنان جنباً إلى جنب على الخطوط الحديدية. إنه «يوغي جونسون» يسير مع المرأة الهندية. وخلال سيرها يخلع «يوغي جونسون» ثيابه بصمت. يخلع ثيابه بصمت. يخلع ثيابه قطعة بعد أخرى ويلقي بها إلى جانب الخط الحديدي. ويصبح أخيراً عارياً إلا من الحذاء المهترىء الذي صنعه حذاء مصنع المضخات. يوغي جونسون

عارياً تحت ضوء القمر يسير إلى جانب المرأة الهندية نحو الشمال. والمرأة الهندية تسير إلى جانبه وهي تحمل على ظهرها الطفل الهندي في مهده المصنوع من اللحاء. حاول «يوغي» أن يأخذ منها الطفل. يريد أن يحمل الطفل الهندي. الكلب الضخم يعوي ويلحس كاحليّ «يوغي جونسون». لا، المرأة الهندية تحمل الطفل الهندي بنفسها. ويغذّان السير شمالاً في الليل الشمالي.

خلفهما يظهر هيكلان محدّدان بدقّة في ضوء القمر. إنهما الهنديان. هنديا الغابات ينحنيان ويلمّان ثياب «يوغي جونسون» التي خلعها. وبين الحين والحين يتحدثان الواحد للآخر بصوت ناخر. يسيران بهدوء في ضوء القمر وعيونهما الحادة لا تخطىء أي قطعة مرميّة من الثياب. وتُلقى القطعة الأخيرة من الثياب فينظران ويبصران الشخصين أمامهما بعيداً في ضوء القمر. يستقيمان ويتفحصان الثياب.

«الزعيم الأبيض لبّيس نزق» يقول الهندي الطويل وهو يحمل قميصاً عليه حروف أولى.

«الزعيم الأبيض سيبرد كثيراً» يقول الهندي الصغير ويناول صدّارة للهندي الطويل. يلف الهندي الطويل الثياب والأردية المخلوعة كلها في رزمة، ويعود الهنديان مع الخطوط الحديدية إلى المدينة.

«أنحتفظ بملابس الزعيم الأبيض أم نبيعها لجيش الخلاص» يسأل الهندي القصير.

«الأفضل هو أن نبيعها لجيش الخلاص» يجيب الهندي الطويل بصوت ناخر «ربما لن يعود الزعيم الأبيض».

«الزعيم الأبيض سيعود بأحسن حال» قال الهندي الضئيل.

«الأفضل أن نبيعها لجيش الخلاص على أي حال» قال الهندي الطويل «فالزعيم الأبيض يحتاج إلى ملابس جديدة عندما يحل الربيع».

وعندما سارا مع الخطوط الحديدية إلى المدينة بدت الريح أكثر نعومة. الهنديان، الآن، يسيران بقلق. وريح دافئة تهب خلال أشجار «التمراك»[15] و«الأرز» على جانبي الخط الحديدي. شيء ما يتحرك داخل الهنديين. حافز ما. قلق وتنيّ غريب. الريح الدافئة تهب. يقف الهندي الطويل، يرطّب إصبعه بلعابه ويرفعه في الهواء. الهندي الصغير يراقب. ثم يسأل «تشينوك؟».

«تشينوك قوية» يجيب الهندي الطويل ويسرعان إلى المدينة. القمر يحتجب وراء السحب التي يحملها هبوب ريح التشينوك الدافئة.

«أريد أن نصل المدينة قبل الزّحام» قال الهندي الطويل.

«على الأخوة الحمر أن يكونوا مستعدين في الصف» قال الهندي الصغير بقلق.

«لا أحد يعمل في المصنع الآن» قال الهندي الطويل بصوت ناخر.

«الأفضل أن نسرع»

الريح الدافئة تهب. وفي أعماق الهنديين تتحرك رغبات غريبة. لقد عرفا ما كانا بحاجة إليه. الربيع يحل، أخيراً، في المدينة الشمالية الصغيرة المتجمدة. وأسرعَ الهنديان على خطوط السكة الحديدية.

الملاحظة الأخيرة من الكاتب للقارىء

والآن، يا عزيزي القارىء، كيف وجدتها؟لقد استغرقتني كتابتها عشرة أيام. هل تستحق ذلك؟ مكان واحد فقط أود أن أوضحه. أتذكر فيما مضى من القصة حيث حكت النادلة المسنة «ديانا» كيف فقدت أمها في باريس، واستيقظت لتجد نفسها مع جنرال فرنسي في الغرفة المجاورة. قد تهمك معرفة التفسير الفعلي لذلك. ما حدث فعلاً هو أن أمها مرضت بصورة مفاجئة بالطاعون «البيوبوني»[16] خلال الليل. وقد شخص الطبيب الذي استدعي الحالة وحذّر السلطات الرسمية. كان ذلك في يوم افتتاح المعرض الكبير. وفكّر بتأثير ذيوع حالة طاعون بيوبوني على المعرض. لذلك، وببساطة، أخفتْ السلطات الفرنسية المرأة التي ماتت عند الصباح. والجنرال الذي تم استدعاؤه وشغل السرير الذي كانت تشغله الأم بدا لنا كرجل غاية في الشجاعة. لكنه كان واحداً من العارضين في المعرض كما أعتقد. وعلى كل حال، أيها القارىء فإن هذه القصة، كعيّنة من التاريخ المكتوم، ظلّت بالنسبة لي قصة رائعة، وأعلمُ أنك تفضّل أن أوضحها هنا أكثر من أن أسرد توضيحاً لها في الرواية، حيث لا مكان لها أصلاً. رغم ذلك فمن الممتع ملاحظة الطريقة التي أخفى بها البوليس الفرنسي الموضوع برمته،

وكيف ضبط الحلاق وسائق التاكسي بسرعة فائقة. وبالطبع، فإن هذه القصة تظهر أنك حين تكون مسافراً خارج وطنك، وحيداً أو حتى مع أملك، فإنك، ببساطة، لا تستطيع أن تكون حريصاً بما فيه الكفاية. آمل أن يكون وضع التوضيح هنا ملائماً لأنني شعرت، أيها القارىء، أنني مدين لك بهذا التفسير. لا أؤمن بالتوديع المطوّل أكثر مما أؤمن بالارتباطات الطويلة. ولذلك فسأقول ببساطة وداعاً وأتمنى لك التوفيق أيها القارىء، وأتركك الآن لأمورك الخاصة.

○ ○ ○

الهوامش:

(1) كاكسي: جاكوب سيكلر. مصلح سياسي أمريكي (1854 - 1951).

(2) معطف مصنوع من بطانية صوفية كانت توزعها القوات الأمريكية على الجنود.

(3) المصباح القوسي: المصباح الذي ينبعث ضوءه من قوس كهربائية.

(4) الجنوب والشمال الأمريكي.

(5) تعبير بالفرنسية: على الطريق.

(6) ويسمانز: جوريس كارل. روائي فرنسي اسمه الأصلي (شارلس ماري جورج) (1848 - 1907).

(7) فرانسيس سكوت فيتز جيرالد: كاتب أمريكي (1896 - 1940).

(8) المقصود أن فيتز جيرالد أحرق هذا الجزء من القصة.

(9) الموكاسين: بوط مصنوع من الجلد يلف نعله على جانبي القدم وأطراف الأصابع.

(10) حزام عسكري للضباط ذو حمّالة تحيط بالكتف اليمنى.

(11) غوس: ادموند. شاعر وناقد انجليزي (1849 - 1928).

(12) البشروش (فلمنجو). طائر مائي ذو عنق طويل وسيقان طويلة.

(13) نات، هامسون: الاسم المستعار لـ (نات بيدرسون) كاتب نرويجي (1859 - 1952).

(14) إنها امرأتي: كرر الكاتب هذه مستعملاً في المرة الثانية الضمير المستعمل لغير العاقل.

(15) التمراك: شجرة من الفصيلة الصنوبرية. تكثر في امريكا.

(16) طاعون يصيب الغدد اللمفاوية، وعلى الأغلب الموجودة منها في أصل الفخذ.

□ □ □

سيول الربيع

عرف القراء العرب همنغوي من خلال روائعه الشهيرة : لمن تقرع الأجراس ، الشيخ والبحر ، وداعاً للسلاح . لكن هذه الرواية الهامة (سيول الربيع) انتظرت طويلاً حتى جاءت هذه الترجمة لها ، ضمن ما تقدم دار الحوار من روائع الأدب العربي والعالمي .

سيول الربيع ، هي الكتاب الثاني لهمنغوي ، والذي رفض به أساتذته وناصحيه، وانطلق يشق سبيله ويبني مجده .

سيول الربيع هي مفتاح الروايات الخالدة التي قدمها همنغوي فيما بعد فلنقرأ هذه الرواية .

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339